

شيلي واليا

ترجمة: عفاف عبد المعطي



صدام ما بعد الحداثة

إدوارد سعيد وتدوين التاريخ





**صدام ما بعد الحداثة**

**إدوارد سعيد وتدوين التاريخ**



---

# ■ شالى واليا ■

---

صدام ما بعد الحداثة

إدوارد سعيد وتدوين التاريخ

العنوان الأصيل للكتاب

*Postmodern Encounters :*

*Edward Said*

*And the Writing of History*

*Published in UK in 2001 by Icon Books Ltd., Grange  
Road, Duxford, Cambridge CB2 4QF*

ترجمة وتقديم

عفاف عبد المعطى

رؤية

للنشر والتوزيع

---

2006



## مرايا الكتاب

الكتاب : إدوارد سعيد وتدوين التاريخ

الكاتب : شالي واليا

ترجمة وتقديم : عفاف عبد المعطي

المدير المسؤول : رضا عوض

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة ١٢ / ٣٥٢٩٦٢٨ -

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤٠

الإخراج الداخلي : جويى

جمع وتنفيذ : الشركة الدولية لخدمات الكمبيوتر

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

رقم الإيداع : ١٩٨٨٥ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى : 977-6175-13-2





## ■ محتوی الكتاب ■

الصفحة	الموضوع
٧	مقدمة .....
١٠	إدوارد سعيد كاتباً كونياً
١٩	من المثقف الحقيقي ؟! .....
٢٣	الاستشراق بين إدوارد وروودنسون .....
٣٠	مهمة الناقد .....
٣٦	أزمة الهوية .....
٤٠	ما علاقته باليهود ؟ .....
٦٥	القسم الأول
٦٦	الحياة في المنفى .....
٧٠	المثقف والموقع السياسي .....
٧٦	التاريخ وما بعد الحداثة .....

الموضوع	الصفحة
التاريخ والأدب .....	٨١
علاقة إدوارد بالتاريخ .....	٨٤
منهجية إدوارد سعيد .....	٨٦
<b>القسم الثاني</b>	
الخطاب والمعرفة أو «سلطة ميشيل فوكو» .....	٩١
تأثير فوكو .....	٩٩
إدوارد سعيد وجرامشي .....	١٠٢
إدوارد سعيد ومشروع التنوير .....	١٠٧
إدوارد وفكرة الاستشراق .....	١٠٩
ما الخطأ في الاستشراق؟! .....	١١٨
الثقافة والامبريالية .....	١٢١
الميل في العالم الثالث .....	١٢٥

الصفحة	الموضوع
١٢٩	بين التاريخ والحقيقة .....
١٣٣	إدوارد ناقد القرن .....
١٣٩	المصطلحات الرئيسية .....
١٤٧	نبذة .....

# مقدمة

## إدوارد.. كاتباً كونياً

رأيت إدوارد سعيد لأول مرة أوائل عام ٢٠٠٣ أثناء اللقاء لمحاضرة بالجامعة الأمريكية عن الأوضاع في الشرق الأوسط، وقد عرج منها على قضية عمره "القضية الفلسطينية" باعتباره ابن فلسطين البار الذي ظل طوال حياته على مبادئه في الدفاع عن تلك القضية والوقوف متضاداً مع كل من يُهادن في تلك القضية أو يساوم استفادة من انهيار الواقع في الشرق الأوسط خاصة في منطقة فلسطين. كما وأن الصورة التي تعطيها وسائل الإعلام (والحكومة الأمريكية أيضاً) عن التقدم "الرائع" نحو عملية السلام في الشرق الأوسط تتناقض تماماً مع تدهور الوضع في المنطقة خصوصاً بالنسبة إلى الفلسطينيين.

كانت حجة سعيد قوية ومنطقه صائب ونافذ وهادف مما أكد على أنه الأكاديمي والمفكر العالمي فلسطيني الأصل الذي يعتبره كثيرون واحداً من نخبة مثقفي القرن الذين استطاعوا القيام بدور الجسر بين ثقافات مختلفة. أهميته تبرز من تعددية اهتماماته وغزارة كتاباته ومنهجه النقدي الذي لا يجامل فيه. والنقد هو سمة سعيد وهويته وهو يمارسه باعتباره الوسيلة الأهم للإبقاء على الجوهر الإنساني للأشياء وإزالة ما يحيط بها من تشوهات وتحيزات وخداع.

أول كتاب صدر لإدوارد سعيد كان عام ١٩٦٥ تحت عنوان "بدايات - القصد والمنهج" ثم تبعه عام ١٩٦٦ بكتاب "جوزيف كونراد ورواية السيرة الذاتية" عن الروائي البولوني جون كونراد الذي غادر وطنه عام ١٨٧٤ وهو في السابعة عشرة من العمر ثم

عاش فى فرنسا وعمل قرابة أربع سنوات فى البحرية التجارية الفرنسية، وفى عام ١٨٧٨ جدد حياته كاملة فصار بحارا فى البحرية البريطانية، ثم اتجه إلى كتابة الرواية فصدرت روايته الأولى "جنون الماير"، ولعل الجامع بين سعيد وكونراد هو الخروج من الوطن ومُقدَّرات العيش فى أوطان أخرى والحديث بلغة غير لغة الوطن الأم، فضلا عن تجارب كونراد التى عاشها فى بولونيا واغترف منها ليكتب عنها بلغة أخرى تمثل لغة البلدين اللتين عاش فيهما، مصدر إعجاب إدوارد سعيد رجع إلى أن كونراد عاش فى لغة وكتب فى لغة أخرى. وإن كان كونرد أفضل حالا من إدوارد سعيد حيث بولونيا بلد سلافى وإنجلترا بلد أوربى غربى وتبقى اللغة التى نشأ عليها كونراد واللغة التى استخدمها فى نصوصه محصورتين ضمن المنطقة الأوروبية، لكن صعوبة وضع اللغة بالنسبة لإدوارد سعيد تكمن فى الفارق بين اللغة العربية التى نشأ عليها وبين الإنجليزية التى استخدمها فى كل كتبه وعاش أكثر سنوات عمره يتعامل بها.

يظهر مشروع إدوارد سعيد الفكري الأساسى وقد تنوعت مشاركته بين السياسة التى اتخذ قراره بأن يعود إلى الكتابة فيها بعد حرب ١٩٦٧، والنقد الأدبى وجماليات الفنون. يلخص هذا المشروع - باعتباره أستاذا للأدب المقارن - كتاب "الاستشراق" ١٩٧٨ الذى يُعرفه بأنه طريقة للوصول إلى تلاؤم مع الشرق مبنية على منزلة الشرق الخاصة فى التجربة الأوروبية الغربية، حيث لم



يكن الشرق لصيقاً بأوروبا فحسب، بل هو موضع أعظم مستعمرات أوروبا وأغناها وأقدمها، ومصدر حضارتها ولغاتها ومنافسها الثقافي. وقد أراد في كتابه "الثقافة والإمبريالية" الصادر بعده بخمسة عشر عاماً (١٩٩٣) أن يقدم أجوبة لأسئلة أثارها كتاب "الاستشراق"، و أن يرفض الفصل المطلق بين الأبيض وغير الأبيض (أى الغرب ومن سواه) بوصف هذا الفصل أسطورة من الأساطير الآثمة للإمبريالية ذاتها، حيث رسّخ إدوارد سعيد وضع عالماً بوصفه عالماً من المشاركة، والثقافات المتقاطعة التى تمتلك علاقاتها ونزعاتها من الثراء ما يمتلكه التاريخ الإنساني نفسه، كما قامت أفكار الكتاب على اكتناه الروابط العميقة والحيوية بين العرب والغرب واليابان والصين وأفريقيا هذه العلاقة التى تفوق فى عائدها وخصوبتها ما ينفى المقولة المعروفة المتخيلة التى تفترض أنه وضع غربى شرقى "نقى صاف من الأعراق والحضارات بعضها عن بعض" فالموقف الفكرى فى الثقافة والإمبريالية الذى ينطلق منه إدوارد سعيد ينبع من إيمان عميق بالإنسان والحرية وضرورة التواصل والتفاعل والإثراء المتبادل بين الثقافات والمجتمعات، والصراع ضد الاستعلائية والاستعمار والهيمنة والتسلط والتمركز الغربى، وضد نقائضها من قوميات ضيقة، وهويات متشرنقة وتمركز إسلامي أو عربي أو إفريقي.

فى كتاب "الثقافة والإمبريالية" - أيضاً - يكمن قدر من مشروع إدوارد سعيد النقدي - باعتباره أستاذاً للنقد الأدبي والأدب

المقارن - حيث يفسر انتشار الرواية الملازم لانتشار الإمبريالية وفكرة الإمبراطورية، فهو يربط بين تجاوز الفضاء الجغرافي وبين الرواية وبين حركة التوسع الإمبراطوري وبين ازدهار الرواية لا ربطاً آلياً جامداً، بل ربطاً حيويًا خلاقاً يجلو النقاب عن سؤال كيف تتجسد الوشائج في بنية الرواية ذاتها وآليات تشكلها مما يعيد إنتاج الفكر الغربي، فقد ظلت كتابات الفرنسي ألبير كامو تسحر القارئ الغربي التي تقوم أساساً على الدفاع عن الإمبريالية الفرنسية ومن ثم إلغاء التاريخ الجزائري السابق على استعمار فرنسا لها، وما فعله إدوارد سعيد عبر تحليل نصوص ألبير كامو هو أن فسر المكونات الأساسية في عمل كامو في إطار إشكاليات معرفية مرتبطة بمنظوره الإمبريالي الذي يكشف جوهر عمل كامو القائم على الدفاع عن الإمبريالية الفرنسية. فالمفارقة اللاذعة في نصوص كامو تكمن في أنه حينما يسرد قصة في رواياته أو في مقطوعاته الوصفية، فإن الحضور الفرنسي في الجزائر - بلد المليون شهيد من جراء الاستعمار الفرنسي - يُصاغ إما كسرد غير جوهري لا يخضع للزمان أو التأويل أو بوصفه التاريخ الوحيد الجدير بأن يسرد كتاريخ. كما يفسر إدوارد سعيد كيف أن ألبير كامو ابن إرث طويل من الكتابة الاستعمارية عن الجزائر شملت المزايم التقليدية التي تمتاح من تاريخ السيطرة الفرنسية على الجزائر. بينما في قراءاته لفيردي وجين أوستن وغيرهما يسلخ عن عمالقة الفكر هؤلاء الإهاب المفتعل الذي تلفعوا به، ويكشف منظورهم المتعالي

اللاإنساني المشبع بروح العنصرية والتفوق والاستغلال الاقتصادي والعرقى، بل إن قدرة كتاب سعيد وأهميته لا يقف عند هذا الحد بل تتمثل فى طريقة قراءته للنصوص التى تكشف تجليات العمليات والهواجس التى يناقشها فى إبداعات الفكر الغربى على مستوى تشكيلها النصي.

كما نال التراث العربى قدرا كبيرا من اهتمام إدوارد سعيد ظهر ذلك فى كتابه المهم " العالم والنص والناقد " الذى تُرجم دون علم إدوارد سعيد بذلك كما يظهر. ففى هذا الكتاب وثيق الصلة بالنقد الأدبى نظر إلى النص باعتباره كُليّة متكاملة برغم حركته وتغايره إلا انه مرتبط إلى حد كبير بملازمات الوضع الذى تبلور فيه، وقد اعتمد سعيد على إنجازات اللغويين العرب القدامى ونظرية اللغة ذات الطبيعة المزدوجة لديهم خاصة عند ابن جنى (٩٣٢-١٠٠٢) وابن حزم (٩٩٤-١٠٦٤) التى تضم خصائص الكلام والكتابة معا، وذلك لطرح مفهوم محدد لعلاقة النص بظرفيته وملازمات إنتاجه، فقد قدم هؤلاء اللغويون العرب فى العصور الوسطى ما اسماه إدوارد سعيد " نظرية بالغة البراعة للتعامل مع النص باعتباره صيغة متميزة ومترعة بالدلالة تعد فيها دنيوية النص وملازماته وظروفه ومكانته باعتبارها شيئا له خصوصيتها الحسية واحتمالاتها وإمكانيتها التاريخية وهى من الأمور التى يتضمنها النص فى نصه أو يرشقها داخله، وهذا يعنى أن للنص وضع دنيوى معين يفرض على مؤوله وتأويله عددا من

المحددات ليس لأن هذا الوضع مختلفاً في النص كشيء غامض، ولكن لأنه موجود على مستوى ظاهر النص نفسه<sup>١</sup> وهذا يؤكد إلى درجة كبيرة وثوق العلاقة بين النص والعالم وتداخل تلك العلاقة في النص<sup>(١)</sup>.

يبد أن مذكرات إدوارد المهمة "خارج المكان" تبهر قارئها لاعتراف صاحبها بأنه مُقدم على عمل متناقض جذرياً يتمثل في إعادة بناء عالم في مصطلحات عالم آخر بمعنى تذكر تجارب كثيرة عاشها باللغة العربية يصورها بالإنجليزية بعد سنوات كثيرة من حياته قضاها خارج العالم العربي، ولكون المذكرات جزءاً من سجل تاريخ صاحبها خاصة إذا كان شخصية مثال إدوارد سعيد، بل لأنه عدّها سجل لعالم مفقود أو منسى حرص على تدوينه وجعل مادته بمثابة أداة لمقاومة المرض الذي داهمه منذ أوائل التسعينيات.

اللافت في مذكرات "خارج المكان" صورة حياته الباكّة التي عاش معظمها في القدس الغربية والقاهرة، والثورة المصرية ١٩٥٢ والاضطرابات الأهلية اللبنانية التي بدأت عام ١٩٥٨. وهي سجل شخصي غير رسمي لتلك السنوات المضطربة التي عاشتها منطقة الشرق الأوسط، فسرّد إدوارد سعيد قصة حياته على خلفية الحرب العالمية الثانية وضياع فلسطين وقيام دولة إسرائيل وسقوط الملكية

١ راجع The World, The Text and the Critic وقد تم ترجمته وصدر عن منشورات اتحاد الكتاب العرب ٢٠٠٠.

فى مصر والسنوات الناصرية وحرب عام ١٩٦٧ وانطلاقة حركة المقاومة الفلسطينية والحرب الأهلية اللبنانية واتفاقية أوسلو كل هذه الأحداث صنعت سيرة إدوارد سعيد الإنسان والعالم والسياسي.

كانت مرحلة الطفولة التى دمرتها - على حد تعبير إدوارد سعيد نفسه - أحداث عام ١٩٤٨ قد أجليت فيها كل أسرته عن الأراضي الفلسطينية وعاشت فى المنفى وصار يعود كأي ضيف الى فلسطين الوطن.

ظهرت أيضا فى مذكرات إدوارد سعيد علاقة الحنين الدائم التى صورها بينه وبين مدينة القاهرة، وهى علاقة وثيقة عميقة صنعها وجوده إبان مرحلة الصبا التى عاشها فى الطابق الخامس من منزل رقم واحد بشارع عزيز عثمان بجزيرة الزمالك، كان يطل على حديقة الأسماك التى وصفها إدوارد سعيد بدقة "فهى منتزه صغير مسور ذو تلة جبلية وحوض صغير ومغارة تخترقه مروجات خضراء ومسالك متعرجة وتحف به أشجار كبيرة". هناك دافع مهم آخر لا تورده سوى حساسية إدوارد سعيد لكتابة تلك المذكرات هو رؤية عم أحمد حامد الفراش الذى يتنمى الى مدينة ادفو فى صعيد مصر و الذى عمل لمدة ثلاثة عقود فى خدمة عائلة إدوارد سعيد ومن ثم عندما قابله بالعناق الحار والحزن على زمن مر عليه ٣٨ عاما و لن يستعاد ؛ سرد له هذا الرجل - فى ذاكرة فولاذية - تفاصيل حياة الأسرة مما جعل إدوارد يقول "بعد أن قام الرجل بتفريغ الماضى صعقت أنه لا يتذكر كل واحد منا نحن السبعة وإنما

يتذكر كل واحد من عمومى وعماتى وأبناءهم وجدتى إضافة إلى البعض من أصدقاء العائلة وزاد هذا اللقاء بالمصادفة من اقتناعي بجدوى هذا الكتاب<sup>(1)</sup> ولئن كانت مقابلة إدوارد سعيد بعم احمد حامد صاحب الذاكرة القوية قد كانت من دوافع تدوين مذكرات إدوارد سعيد، فقد كانت دافعا أيضا لسرد جعل من إدوارد سعيد حكاية متميزة ذا عين ثاقبة جميلة فى ذكر تفاصيل السير فوق كوبرى قصر النيل والعروج على حديقة الأندلس التى سماها بالحديقة المغاربية، وكذلك لأن يتعرف على شوارع إمبابة وبولاق الدكرور. وفى تقديرى ان مذكرات " خارج المكان " تمثل منظومة متكاملة لكل مرحلة من مراحل حياة مفكر كبير فى حجم إدوارد سعيد وتجربته فى الحياة التى تمثل كل منها ذاكرة وحدها تستحق النظر إليها بعين الاعتبار.

١- راجع :خارج المكان- ترجمة:فواز طرابلسي-دار الآداب - بيروت- ط١-

## من المثقف الحقيقي؟!

مذكرات إدوارد سعيد وكذلك كتبه النقدية تُظهر صورة المثقف الحر غير المنتمى صاحب الهوى السلطوى صورة طالما أكد عليها وظهرت فى آراءه وسلوكه فى كتابه "صور المثقف"، وكذلك مجموعة الأحاديث التى ظهرت معه فى كتاب "القلم والسيف".

فى عام ١٩٩٤ قدّم إدوارد سعيد كتاب "صور المثقف"، وفى العام نفسه أجرى دافيد بارساميان<sup>(١)</sup> مجموعة من الحوارات معه قدّم لها إقبال أحمد (بروفيسور علم السياسة ومختص بتدريس قضايا الشرق الأوسط والعالم الثالث فى معهد الدراسات السياسية) وصدرت تحت عنوان "القلم والسيف"، ولاشك أن هناك علاقة تضافر ما خاصة بين كتابة ادور سعيد حول صور المثقف المتباينة وأوضاعه المختلفة ورؤاه هو بوصفه مثقفاً، ومن ثم جاءت الحوارات التى أجريت معه لتمثل الصورة الأكثر بلورة لفكره ثم جاء كتاب "نهاية عملية السلام" كى يلخص المرحلة السياسية منذ اتفاق أوسلو ١٩٩٣، حيث الخطوة الأولى لتحرير الأراضى المحتلة هى أن تقرر فكراً أنها ستتحرر، وإن قرار

١ - إدوارد سعيد - القلم والسيف - حوار : دافيد بارساميان - ت : توفيق الأسدى - دار كنعان للدراسات والنشر - دمشق ط١ - ١٩٩٩.



الولايات المتحدة واسرائيل أن لا عودة عن الضم (يعنى ضم القدس الشرقية إلى الغربية) وعن عملية السلام ليس سبباً كافياً للقبول بالظلم والسرقة المفصوحة، لذا فإن الخطوة الأولى لا بد أن تكون الاعتراف بأن عملية كهذه بالتأكيد قابلة للنقض وبأن الوصول إلى هذا الهدف يتطلب تعبئة حقيقية واستعداداً حقيقياً، في حين أن السير على الطريق الحالى بقيادة الاشخاص الحاليين لن يؤدي سوى إلى المزيد مما نجده من الأوهام والخسارة والفساد<sup>(1)</sup>.

ويمثل كتاب "صور المثقف" مجموعة من محاضرات ريث التي تلقى في إذاعة الـ BBC وبدأت عندما افتتح برتراند راسل سلسلتها في عام ١٩٤٨. ومنذ اللحظة الأولى للإعلان عن محاضرة ادور سعيد في أواخر عام ١٩٩٢ احتشد الجميع ضد موضوع المحاضرات الذى يدور حول الدور العلنى للمثقف الـ "غير" متم الـ غير "هاوى" الـ غير "مشوش" على الواقع الراهن، ولقد كُرسَت هذه المحاضرات - فعلا - للتحديث عن المثقفين بوصفهم على وجه التحديد تلك الشخصيات التى لا يمكن التكهّن بأدائها العلنى، أو إخضاع تصرفاتها لشعار ما، أو لخط حزبى تقليدى أو لعقيدة جازمة ثابتة. خاصة أن مشكلة مثقفى هذه الأيام - حسب سعيد- أنهم تنازلوا عن سلطاتهم الأخلاقية لمصلحة

١- راجع موقف ادوارد سعيد الجسور من عملية السلام والنقائض الأمريكية والإسرائيلية بسبب تلك العملية. ادوارد سعيد- نهاية عملية السلام (اوسلو وما بعدها)- دار الآداب- بيروت- ٢٠٠٢.



ما يسميه بتنظيم العواطف الجماعية مثل الروح الطائفية والمشاعر الجماهيرية والعدوان القومي والمصالح الطبقية، والأهم بالنسبة للمثقف أن يكون في حالة معارضة شبه دائمة للوضع الراهن، فالمثقف شخص قادر على قول الحق في مواجهة السلطة، كفرد قاسٍ وبلغٍ - في الآن نفسه - وشجاع إلى درجة لا تُصدّق وغاضب لا يعرف قوة دنيوية تكون كبيرة ومهيبة جدا بحيث لا يمكن انتقادها وتوبيخها على سلوكها. ومن هنا يبدو التلاؤم واضحا بينه وبين كتابه السابق عليه "القلم والسيف" خاصة وأنه في كتاب القلم والسيف قد ظهر رأى ادوارد سعيد الحقيقي ليس كمثقف فقط بل كفلسطيني يدافع حتى النخاع عن الأرض التي خرج منها ولا تزال تستلب حتى الآن حيث يقول سعيد "الفلسطينيون أو الضمير الفلسطيني والذي هو بمعنى ما قد تعرّض للاغتصاب من التاريخ، توحى إلى ذكرياتي عن أيامى الباكرة في فلسطين عن صباى عن السنوات الاثنتى عشرة أو الثلاثة عشرة من حياتى قبل أن أغادر فلسطين ربما بسبب الإدراك المتأخر والحنين الاستعاضى توحى الى هذه الذكريات بمحاولة تهدف إلى أن تكون محجوبة، كلنا كنا نحاول أن نحجب عن أنفسنا الحقيقة الواضحة، إن المكان كساب يستلب منا وأنه سيكون هناك قتال بيننا وبين المستوطنين القادمين من أوروبا ثم استيقظنا في عام ١٩٤٨ على الواقع ؛ لقد طردت عائلتى بكاملها(١) .

١ - راجع ادوارد سعيد- القلم والسيف- حوار دافيد باراساميان - ترجمة: توفيق الأسدي- دار كنعان- ط١-١٩٩٩ .

وهذه الصورة هي التي صنعت من ادوارد سعيد مثالا للعالم والمفكر الكتاب في السياسة والأدب، والرياضي الذي كتب عن لعبة البيسبول، والفنان الذي تذوق الفن فكان عازفا ماهرا للبيانو.

## الاستشراق بين ادوارد ورودنسون

كان لظهور كتاب (الاستشراق) ١٩٧٨ للمفكر ادوار سعيد أثراً كبيراً في فهم معنى الاستشراق الذي يعتنق أسلوباً معيناً في الثقافة الغربية الخاصة بالتحدث عن الشرق والبحث فيه وتوظيفه، وهو أسلوب يعكس الثقافة المنتجة أكثر مما يعكس موضوع التأمل أو البحث وهو الشرق. يُعرف سعيد الاستشراق بدقة بأنه طريقة للوصول إلى تلاؤم مع الشرق مبنية على منزلة الشرق الخاصة في التجربة الأوروبية الغربية. حيث لم يكن الشرق لصيقاً بأوروبا فحسب، بل هو موضع أعظم مستعمرات أوروبا وأغناها وأقدمها، ومصدر حضارتها ولغاتها ومنافسها الثقافي، وقد أصبح الكتاب بعد تداوله أحد عيون الكتب في الواقع لما يحمله من أفكار جدية عن العلاقة بين الشرق الخاضع والغرب الذي يسعى طوال الوقت للهيمنة. ففي تاريخ الثقافة الغربية ظل الشرق تكويناً هلامياً سواء على المستوى الجغرافي أم الثقافي، تكويناً يعكس متغيرات الثقافة الغربية وإن ظلت له ثوابته وأنماط تفكيره واستقرار فكرته الذهنية عن هذا الشرق. إضافة إلى ذلك يبرز ادوار سعيد التكوين المؤسسي للاستشراق وارتباطه بالمصالح السياسية الغربية حيث جاء ازدهار الاستشراق مواكباً للتوسع الاستعماري والامبريالي الغربي،

فهو معرفة تُنتج القوة، وقد وظّف كثير من المستشرقين علمهم بالشرق لخدمة المصالح السياسية لبلدانهم على نحو ظاهر أحياناً وخفى أحيان أخرى.

بداية تشير كلمة "استشراق" إلى الاهتمام العلمى بالثقافة الشرقية، سواء كانت عربية أم آسيوية فهى تجمع بين الشرق الأقصى والأدنى، بما يضمه هذا الاهتمام من دراسة وتحقيق وترجمة. كما تجسد كلمة استشراق توجهات فى الفنون الغربية استلهمت فنون الشرق ووظفتها فنياً.

ويمكننا هنا أن ننظر إلى فكرة الاستشراق عبر مفكرين مهمين الأول ادوارد سعيد والثانى مكسيم روبنسون (١٩١٥-٢٠٠٤) فقد مثل رحيل المستشرق الفرنسى - اليهودى من أصول روسية- روبنسون مناسبة لاستدعاء مساره الفكرى فى التقاءه مع مفكر آخر مهم هو ادوار سعيد خاصة وأن بينهما جامعين جوهريين متعلقان بالاستشراق من ناحية، ومناهضة الصهيونية وتعضيد القضية الفلسطينية من ناحية أخرى. وكان لظهور كتاب (الاستشراق) ١٩٧٨ للمفكر ادوار سعيد (وهو ليس مستشرقاً بل مؤصلاً لمصطلح الاستشراق) أثراً كبيراً فى فهم معنى الاستشراق الذى يعتنق أسلوباً معيناً فى الثقافة الغربية الخاصة بالتحدث عن الشرق والبحث فيه وتوظيفه، وهو أسلوب يعكس الثقافة المنتجة أكثر مما يعكس موضوع التأمل أو البحث وهو الشرق. وقد أصبح الكتاب بعد تداوله أحد عيون الكتب فى الواقع لما يحمله من

أفكار جدية عن العلاقة بين الشرق الخاضع والغرب الذى يسعى طوال الوقت للهيمنة .

فالحجة المركزية فى الاستشراق هى أن الخطاب الاستشراقى وعلى الرغم النقلات الهامة التى شهدتها استراتيجياته على مدى القرنين المنصرمين، قد ظل فى الجوهر عاجزاً عن التطور بسبب من تمسكه بخرافة كبرى حول الشرق، إن الثقافة الشرقية هى فى حد ذاتها ثقافة التطور الموقوف بصفة دائمة، وهذا الارتداد الايديولوجى والمنهجى كان -حسب رأى سعيد- أحد أدوات إنتاج الهوية الغربية (مثل الهوية الشرقية) وتوطيد رغبة الغرب فى فرض إرادته على الشرق<sup>(١)</sup> .

وفى تاريخ الثقافة الغربية ظل الشرق تكويناً هلامياً سواء على المستوى الجغرافى أم الثقافى، تكويناً يعكس متغيرات الثقافة الغربية وإن ظلت له ثوابته وأنماط تفكيره واستقرار فكرته الذهنية عن هذا الشرق. إضافة إلى ذلك يبرز ادوار سعيد التكوين المؤسسى للاستشراق وارتباطه بالمصالح السياسية الغربية حيث جاء ازدهار الاستشراق مواكباً للتوسع الاستعماري والامبريالى الغربى، فهو معرفة تُنتج القوة، وقد وظّف كثير من المستشرقين علمهم بالشرق لخدمة المصالح السياسية لبلدانهم على نحو ظاهر أحياناً وخفى أحيان أخرى .

١- راجع: ادوارد سعيد-تعقيبات على الاستشراق-ترجمة وتحرير: صبحى حديدى- المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ١٩٩٦ .

٢- الاستشراق بين إدوارد ورودنسون ■

ويعتبر مكسيم رودنسون واحداً من أهم المستشرقين الغربيين نظراً لاهتمامه المبكر بالثقافة الإسلامية - وهو بذلك مطبقاً لفكرة الاستشراق التي كان سعيد منظرًا لها - عندما صدر أهم كتبه "سيرة النبي محمد" ١٩٦١ و"الرأسمالية والإسلام" ١٩٦٦ بالإضافة إلى مجموعة مقالاته عن "الماركسية والعالم الإسلامي" التي خلّص فيها إلى أن نبذ اللغة من أجل الحفاظ على العبادة هو محاولة لعقلنة الديانة. وفي المقال المتميز الذي خصصه رودنسون للحركات الأصولية الإسلامية تعرض أيضاً إلى السقوط الإيديولوجي الذي حدث من جراء العصبية الدينية وما ترتّب عليه من عواقب. ومنذ أن نشر رودنسون بحثه بعنوان "وضع الاستشراق المختص بالإسلاميات: مكتسباته ومشاكله" عدّد الجهود الكبيرة التي قام بها المستشرقون الكلاسيكيون حتى تمكّن علم الاستشراق من الوصول إلى ما هو عليه. فبينما كان التاريخ الأوروبي يكتفي بدراسة الحضارتين الإغريقية والرومانية جاء عصر التنوير ليضم إلى هاتين الحضارتين كلاً من الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الصينية ليوّسع من أفق دراساته الانسانية، بعد أن كان هذا العلم يحتقر الشعوب الأخرى غير الأوروبية كبداية لتأسيس مصطلح الاستشراق. لقد قام الأوروبيون بعمل كبير - حسب رودنسون - في اكتشاف ودراسة تاريخ الحضارة العربية الإسلامية فأرسلوا العلماء - الذين كان معظمهم آنذاك من العلماء اللغويين - لجمع المخطوطات العربية ثم قاموا بتصنيفها وفهرستها وترجمتها. أي أن المستشرقين الأوائل قاموا بعملية جمع كم هائل

من المعلومات وتبويبها لاكتشاف الشرق وتم الانتقال ابتداءً من القرن التاسع عشر لدراسة هذه المعلومات للوصول إلى مرحلة التنظيم، وهو هدف علمي أقر رودنسون بأنه كان من الدوافع الأساسية للدراسات الاستشرافية وبذلك يتفق مع ما ذهب إليه إدوارد سعيد من أن مبحث الاستشراق كان نابعا من نزعة مركزية أوروبية تجاه الشعوب المدروسة تحقيقاً لأهداف غير علمية تتمثل في غزو هذه البلاد واستعمارها. وقد وجدت هذه البلاد الأوروبية في اكتشاف علوم الشرق مساعداً قوياً لفرض نفوذها على هذه البلاد ونهب خيراتها طوال أكثر من قرن.

إن الجهد الواضح الذي قام به المستشرقون لدراسة تاريخ الحضارة العربية الإسلامية يحمل قيمة كبرى وإن كانت تشوبه الأهداف الاستعمارية كما يقول رودنسون فإن الهدف العلمي كان الدافع الأساس في هذه العملية. لقد وجدت الدول الأوروبية في المعلومات والدراسات اللغوية والانثربولوجية والفقهية والفلسفية والأدبية وبالتاريخ الواقعي لبلاد الشرق مساعداً قوياً لها في بسط هيمنتها على هذه البلاد ونهب خيراتها طوال أكثر من قرن. والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هل نُطلق على بعض علماء الغرب الاستشراقي الذين كانوا يأتوننا بوصفهم رحالة صفة جواسيس لأنهم كانوا يجمعون المعلومات لحكوماتهم من أجل التحضير لاستعمار بلادنا أم نعتبرهم علماء؟ وهل نكتفي بكوننا أمة ذات حضارة عريقة يجب دراسة تاريخها وهو المجال الذي يُدخل إلينا الاستعمار من أوسع الأبواب؟.

القضية الفلسطينية : الجامع المشترك الثاني بين ادوار سعيد ومكسيم رودنسون يتمثل في الدفاع عن القضية الفلسطينية والوقوف في وجه الصهيونية الطاغية، وإن كان سعيد (فلسطيني الأصل الذي وعى تجربة الطرد من الوطن وعياً كاملاً) يمتاز في دفاعه عن القضية بكونها قضية الوطنية التي بات ينتقد القائمين على التفاوض فيها مع التأكيد على الحماس الكبير في الولايات المتحدة التي تتمتع بإجماع عجيب على استفحال التواجد الاسرائيلي في الشرق، فالوضع الفلسطيني الذي أرق ادور سعيد في يوم ما تحول إلى كابوس ثقيل ازداد مع تفاقم الوضع الفلسطيني سوء. كما أن مكسيم رودنسون يمتاز بكونه يهودي الأصل استنكر أفعال إسرائيل منذ صدور كتابه "إسرائيل والرفض العربي" ١٩٨٦، حيث لم يتأخر عن مقارنة الصراع العربي - الاسرائيلي في زمن كان من الصعب مقاومة طغيان الدعاية الصهيونية في العالم. و كان من الذين احتضنوا تجربة "مجلة الدراسات الفلسطينية" الصادرة بالفرنسية عام ١٩٨١ فكتب في عددها الأول وحرص على الاطلالة فيها بشكل شبه منتظم. جاءت أولى مساهمات رودنسون حول علاقة العرب بإسرائيل في العدد الذي خصصته مجلة "الأزمة الحديثة" لجان بول سارنر للصراع العربي - الاسرائيلي إبان نكسة يونيو ١٩٦٧ وحملت هذه المساهمة الطويلة عنوان "إسرائيل... فعل كولونيالي؟". وصارت إحدى أهم المراجع حول تشكل المشروع الصهيوني. ثم توالى



نصوص رودنسون في المضممار نفسه فاعاد الحديث في كتابه "اسرائيل والرفض العربي" الذي كان المحاولة الأولى من كاتب فرنسي إعطاء العرب حقهم في صراعهم مع اسرائيل وشرح موقفه من الصهيونية منذ ظهورها. لكن مشاركة رودنسون في النقاش حول فلسطين كانت ايضاً مناسبة يتعرف فيها العرب على كاتب من اصل يهودي يناهض اسرائيل. ولعل رودنسون يكون بذلك أكثر من ساعد على التمييز بين اليهودية والصهيونية مع استمرار موقفه النقدي من اسرائيل و يمكن تبين ذلك من المقالات التي جمعها في كتاب حمل عنواناً مشيراً هو : " شعب يهودي ام مشكلة يهودية؟ " .

## 3

## مهمة الناقد

النقد بمفهومه المطلق - أى نقد كل الأوضاع التي تؤرق المثقف - هو أهم سمات ادوارد سعيد، وهو يمارسه باعتباره الوسيلة الأهم لكشف زيف الواقع - خاصة السياسي - والنقد بالنسبة لادوارد سعيد شخصي فعال متعاطف مع العالم متضمن في تمثيل مساراته ومرتبطة بالفكرة المتخفية بأن المثقف - عبر عملية المعارضة والروح النقدية يمكن أن يزيل النفاق ويكشف الزيف ويهئ الأرض للتغيير، والناقد يعمل ضمن شبكات متنوعة للتبني مثلما هو النص تماماً. إن دنيوية الناقد بالنسبة لسعيد شئ أساسي مثلما هي الدنيوية للنص، لذلك حين نقرأ تحليله للخطاب الاستشراقي أو العلاقة بين الثقافة الامبريالية والهيمنة الامبريالية أو استمرارية هذه العلاقة في صور معاصرة للفلسطينيين فإن قضية الدنيوية وموقعه في العالم تصبح ميزة حاسمة لما " يشغر " تلك النصوص .

ويمتد نقد إدوارد سعيد الذي سطره في كتبه من نقد الإمبراطوريات الكبرى وحركات المد الكولونيالي (الاستعماري) إلى النقد الروائي إلى النقد السياسي إلى النقد الموسيقي وصولاً إلى النقد الذاتي والعائلي الذي برز بطريقة مدهشة في سيرته الذاتية "خارج المكان"، ونقد فيها والده وكثيراً من أفراد عائلته وأصدقائه.

وفي كتاب "الحق يخاطب القوة.. إدوارد سعيد ومهمة الناقد" - وهو من أهم الكتب التي صدرت عن سعيد- يقوم المحرر بول بوفيه بتشريح إدوارد سعيد الناقد من كل الجوانب من خلال مساهمات عدد من متابعي سعيد ومن كتبوا عنه. في البداية يجدر القول بأن المحرر أحسن صنعا بتصديره للمساهمات التي ضمها إلى هذا العمل الاقتباس التالي عن إدوارد سعيد: "أنا مع الحوار بين الثقافات والتعايش بين الشعوب. إن كل ما كتبت عنه، أو ناضلت لأجله يشير إلى هذا كهدف أساسي. لكنني أعتقد أن العدالة الحقيقية والمبادئ الحقيقية يجب أن تطبق قبل البدء بأي حوار حقيقي". وأهمية هذا الاقتباس أنه يضع إدوارد سعيد في المكان الصحيح والمتوازن والذي لا يلحظه كثير من نقاده، كما يتجاوزه أيضا كثير من معجبيه. فإدوارد سعيد، شأنه في ذلك شأن كبار المثقفين والمفكرين، كان وما زال محط تبجيل ونقد وخلاف وعداء أيضا. ولأنه مثقف ومفكر وموسيقي غير مساوم يجهر بالحقيقة حتى آخر مداها دون احتساب مُسبق لموازن الربح والخسارة، فقد استطالت صفوف المعجيين به وكذلك صفوف خصومه. وفي هذا الكتاب، الأول من نوعه عن سعيد، يجمع المحرر أهم الرؤى والآراء في فكر سعيد ومسيرته الكتابية والسياسية والموسيقية.

تميّز سعيد، حسب ما يرى بوفيه، يأتي من جمعه لخصال ثلاث في آن معا تمثل حال وجودها في أي شخص الكينونة الحقيقية

للمثقف المسؤول والكوني. هذه الخصال هي الاتساع والعمق في المعرفة، والرصانة التاريخية والأكاديمية، والبعد الأخلاقي والقيمي في الموقف السياسي الذي بدونه لا تقوم الحضارات. وغياب أي من هذه الخصال يحول المثقف إلى مجرد موظف عادي أو أكاديمي جاف ينضاف إلى جحافل الأكاديميين في طول وعرض العالم. ويترتب على البعد القيمي في الموقف السياسي رفض منطق القوة والغلبة والتفسير الهلامي للعلاقات البشرية، والنضال من أجل "العدالة" كمبدأ إنساني رفيع لا يخضع لمنطق القوة ولا ينحاز لصالحها. وعلى قاعدة "قيمة العدل الإنساني" بين بشر متساوين أطلق إدوارد سعيد مشاريعه الفكرية الكبرى، بدءاً بالكتابات الأولى عن فلسطين "السماء الأخيرة"، ثم العمل المفصلي "الاستشراق" في سبعينات القرن الماضي الذي قلب فيه التصورات الغربية عن الشرق رأساً على عقب، وصولاً إلى سفره القيم "الثقافة والإمبريالية" عام ١٩٩٣، ثم انخراطه في كتابات ناقدة للعملية السلمية بين إسرائيل والفلسطينيين باعتبارها تدوس على منطق "العدل" وتغلب سرديات المتصر، وليس انتهاء بتسطير سيرته الذاتية الغنية بالتصوير ذي الأبعاد المختلفة لحياة فردية تنعكس فيها تحولات منطقة بأسرها، وخروجها من زمن ودخولها في آخر.

على أن ما يميز سعيد عن كثيرين من مثقفي العالم الثالث، كما تسهب المساهمات في التوضيح في هذا الكتاب، هو أن منطق "العدل" الذي يتحيز له وقيس الأشياء عليه، لا يتوقف تطبيقه عند

التعامل مع الإمبرطوريات الاستعمارية ورواياتها عن البلدان والشعوب المستعمرة، ولا عند نقد السلطات القائمة أيا كان مصدرها، الدولة أو المجتمع، بل إن ذلك المنطق يمتد ليشمل الذات، الجمعية هنا، ونقدها بلا هوادة وعدم تنزيهها عن الأخطاء. وهو هنا يركز على أن من أبرز مظاهر الظلم والإجحاف هي ما تنطوي عليه المشروعات القومية والمحلية التي تخبئ تحت شعاراتها الكبرى إكراهات لا تقل قسوة عن إكراهات المستعمر. وقد أبدع سعيد، في "الثقافة والإمبريالية"، في إعادة إنتاج نقد فرانز فانون للمستعمر (بكسر الميم) لأسباب أكثر وضوحاً من أن تحصى، وأيضاً للمستعمر (بفتح الميم) لأسباب خفية تحتاج إلى وقفة. فمن ضمن هذه الأسباب أن المستعمر (بفتح الميم)، وفي خضم انخراطه المحموم والمشروع في الكفاح ضد الاستعمار قد يلجأ إلى حيل وممارسات الاستعمار نفسه ويطبقها على أبناء شعبه أو شرائح منهم. ولهذا فلا بد أن تكون عين النقد مفتوحة باتساعها على الطرفين، ومهمتها التصويبية هي نقد المستعمر (بفتح الميم) وعدم مجاملته إذا أخطأ وذلك حرصاً عليه كي لا ينزلق إلى مسار من استعمروه. فإدوارد سعيد يرفض التعميمات المطلقة تجاه الحضارة الغربية، كما يرفض التعميمات الغربية تجاه الشرق في "الاستشراق"، وهو يرفض على العموم "السرديات الكبرى" (meta narratives) التي تبناها حضارة ما تجاه الحضارات الأخرى، ويرى أن ليس ثمة سرديات كبرى، أو رواية واحدة للتاريخ والحضارة بل هناك تعددية وتنوع في مسار التاريخ وهناك تصورات ومخيلات لا مجال لتفضيل إحداها

عن الأخرى إذ كل منها يخضع لانتقائيات ثقافية واجتماعية خاصة بها. فالخطر الكبير في السرديات الكبرى هو أنها تنطوي على نظرة "تراتبية" تجاه الشعوب والمجتمعات، ترتبها حسب "الأفضل فالأفضل" وهذه عنصرية أنثروبولوجية لا مناص منها، وذلك كما كان واضحاً في مثال استعمار الرجل الأوروبي الأبيض للشعوب الأخرى، الذي تأسس على قاعدة "تنوير" تلك الشعوب ونقلها إلى مستوى الحضارة الأوروبية. وكل نواتج التراتبية الحضارية، مثل "المركزية الأوروبية" (Eurocentrism) هي في الواقع محاضن للعنصرية المقيتة. ويبرز نقد سعيد للتراتبية الحضارية ليس فقط في نقده للتراث الروائي والفكري الغربي (مثل نقده لكيبلنج، وأوستن، وفيردي وغيرهم)، بل في امتداده لنقد مثقفين من ذوي أصول عالم ثالثة لكنهم تبنا وجهة نظر أوروبية في احتقار الثقافات الجنوبية، وخاصة العربية الإسلامية، وعلى رأس هؤلاء ف. أس. نايبول، الذي حاز على جائزة نوبل، والذي انتقده سعيد بشدة نظراً لموقفه المزدوجة وهو أحد أبناء العالم الثالث.

لكن في مقابل ذلك يرفض سعيد أن يتلذذ مثقفو العالم الثالث بسب الغرب صباح مساء وتحمل الغرب وسياساته وسياسيته كل مسؤولية التخلف والضياع والفقر الذي تعاني منه الشعوب الفقيرة. فهو يُحمّل نخبة ما بعد الاستقلال العالم الثالث مسؤولية لا تقل عن تلك التي يتحملها الاستعمار المباشر في إعاقه النمو والتحضر في أوساط تلك الدول والمجتمعات. وقد نحت مقولتان شهيرتان تنطويان على عمق شديد، يركن في أعماقها مبدأ العدل

في النظر والتحليل والتوصيف، الأولى تقول "لا تضامن بدون نقد" (No solidarity without criticism) والثانية تتقد ما وصفه بـ "رطانة اللوم" (Rhetoric of blame)، وفي كلتا المقولتين يتوجه سعيد إلى مثقفي العالم الثالث حيث يرفض أن يكون "التضامن" مع أي قضية عادلة خالياً من النقد ومُنزّها لها عن الأخطاء، فالنقد هو مبضع الجراح الذي يزيل الأورام أولاً بأول ويسهر على صحة المريض. وبنفس الشدة من النقد فإن سعيد ضد "ثقافة إلقاء اللوم على الآخرين" لأنها ثقافة عاجزة لا تنتج عملاً بل توفر ذرائع للقعود والالتكأ على وسائل الراحة.

ورغم أن تميز إدوارد سعيد الأولى جاء في حقل النقد الأدبي وتأسيس مذهب "النقد ما بعد الكولونيالي" (Postcolonial criticism) والذي يعتبر عمله "الاستشراق" العمود الفقري لهذا المذهب، إلا أنه تخطى حدود التصنيف في إطار حقل واحد. فقد أمدت ثقافة سعيد العالمية الموسوعية نظراته بعمق وتنوع شديدين، في الفكر والثقافة والسياسة واللغة والتاريخ الأدبي. إلى جانب ذلك فإن معارفه الموسيقية الواسعة ومتابعته لتاريخ الموسيقى، وإصداره كتباً في هذا المجال، وممارسته للعزف على البيانو بمستوى المحترفين، كل ذلك أضاف أبعاداً جمالية سواء على كتاباته أو أدواته النقدية فكان يمزج كل تلك الخبرات في العمل النقدي، سواء أكان أدبياً، أم فكرياً، أم سياسياً، وكانت الخلاصة على الدوام أعمال مبدعة وضعت سعيد في مصاف كبار مثقفي العصر الحالي ذوي النزعة الكوزموبوليتانية الإنسانية.



## 4

## أزمة الهوية

غنى عن البيان أن قُرّاء إدوارد سعيد فى العالم كثيرون ومن يقرءون عنه بنفس العدد إن لم يفوقه، لذلك فكتاب ييل اشكروفت وبال أهلواليا "إدوارد سعيد ومفارقة الهوية" (1) يعتبر إضافة إلى قراء إدوارد سعيد لأنه يقدم الأفكار التي تتعلق بجوهر أعماله لتضع هذه الأفكار تقريراً عالى التأثير عن طبيعة تشكّل الهوية فى عالم ما بعد الكولونىالية (ما بعد الاستعمار) ويقدم فهماً جديداً للروابط بين النص والناقد وسياقاتهما المادية ومن ثم يتساءل المؤلفان عن السبب الذى جعل هذه الأعمال المهمة جدا تحقق -عبر سياقاتها- تأثيراتها. فقد عمل إدوارد سعيد أكثر من أى شخص آخر ليضع القضية الفلسطينية أمام الجمهور العالمى، كما كمنت أهميته بوصفه مُنظراً ثقافياً على أرضيتين حيث موقعه الأساسى فى المدرسة المتتمة للدراسات ما بعد الكولونىالية وخصوصاً عبر كتابه المهم "الاستشراق" وإصراره على التأسيس للسياقات المادية للنص والناقد، هذا الإصرار وضعه لوقت ما خارج التيار الرئيسى

١- راجع: ييل اشكروفت و بال أهواليا- إدوارد سعيد (مفارقة الهوية)-

ترجمة: سهيل نجم- مراجعة: حيدر سعيد- فنوى للدراسات والنشر- سوريا



لنظرية المعاصرة لكنه برر بقوة عودة الثبات إلى الوظائف السياسية والثقافية للكتابة.

يرى ادوارد سعيد "إن الهوية تكمن في تساولين هما: من نحن؟، ومن اين جئنا؟ والإجابة عنهما صعبة المنال، ففي المنفى. نحن... الآخر، المعارض، صدع هندسة إعادة الاستيطان، الرحيل - الصمت والحذر يغطيان الألم يهدئان لوعة الخسارة". لقد ظلت الهوية بالنسبة للفلسطينيين مسألة مُحيرة ذلك لأن الفلسطينيين وفقاً لسعيد قد أبعدوا عن ديارهم وبذلك كانت النتيجة أن تبعثوا في العالم، لقد كان الشعار الصهيوني "شعب بلا أرض = اليهود، لأرض بلا شعب = الفلسطينيون" شعاراً يقدم فلسطين على نحو ما فعلت الامبريالية الأوروبية وكأنها مقاطعة خالية مملوءة على نحو متناقض بأناس أراذل وغير ضروريين. هذا التصنيف للمكان وسكانه براهن لسعيد على أن الاحتلال البريطاني - الصهيوني المتواصل لفلسطين كان مثلاً على التاريخ الطويل للامبريالية الأوروبية.

لقد كان استعمار فلسطين هو الذي أجبر سعيداً على أن يختبر الخطاب الامبريالي (الاستعماري) الغربي كي ينسج تحليله الثقافي مع النص الذي يحمل هويته. كما أن تسييس ادوارد برهن له أن النظرية الأدبية نفسها لا يمكن أن تنفصل عن العلاقات السياسية في العالم الذي كُتبت فيه. الشيء الذي لا ينكر أننا لا نستطيع أن نفصل بين الترابط السياسي للدولة الفلسطينية وهوية ادوارد سعيد،

فلا نستطيع إسقاط كتاباته عن فلسطين إلى نوع من الكتابة العادية لأننا لا نستطيع أن نعزل المسألة الفلسطينية عن تاريخ الامبريالية الأوروبية وعن الوقع المعاصر لمقاومة ما بعد الكولونيالية متنوعة الأشكال في مختلف المجتمعات، هذه الأشياء تتداخل في الحال بعضها مع البعض ارتباطاً بالواقع.

سواء كان ادوار سعيد ناقداً أو محللاً سياسياً أو منظرأً أدبياً وثقافياً أو حتى مواطناً يحمل هوية مزدوجة فلسطينية وأمريكية فإنه يمثل طبيعة الهوية القائمة على المفارقة في الدنيا المهاجرة المتعولة التي عاشها حيث وقع في تناقضات بين شخصيته التي عاشت في الغرب وتأثرت به وعلاقته السياسية بوطنه الفلسطيني. تناقضات بين صوته السياسي والموقع المهني، تناقضات بين الطرق المختلفة التي قرئ فيها، تناقضات في الطريقة التي وضع فيها في الأكاديمية، لقد كان الترابط الحميم بين هوية سعيد ونظريته الثقافية، وكذلك المفارقات التي يكشفها بين لنا شيئاً عن تركيب وتعقيد الهوية الثقافية نفسها، فهو عربي وفلسطيني وبالتأكيد طبقاً لاسمه فلسطيني مسيحي هذه المسيحية إن لم تكن مفارقة في عالم إسلامي شرق أوسطي متزايد، فهي بالتأكيد تمثل مفارقة بالنسبة للمثقف من جهة كونه أبرز ناقد للتمثيل الغربي المعاصر للإسلام. إن مفارقة هوية ادوارد سعيد هي الميزة الاستراتيجية التي قدمت مفتاحاً لاهتماماته وقناعات نظريته الثقافية، هذه الهوية هي في نفسها نص يدرس وتعاد كتابته باستمرار من قبل سعيد متقاطعاً

ومتربطاً مع كل النصوص الأخرى التي يكتبها، لذا كان الترابط الحميم بين هوية سعيد ونظريته الثقافية التي قامت في أغلبها على نقد الامبريالية الدالة على الهيمنة في كل صورها مقابل الانتصار للقلة التي ينبغي أن يكون لها مكانا على خارطة هذا العالم.

ولأن ادوارد سعيد قد وجد نفسه في فضاء بين ماضى يمثل وطنه الفلسطيني المستعمر وحاضره الأمريكى الامبريالى فقد وجد نفسه ملتزماً بالتكلم من أجل فلسطين على أن يكون صوت المهمشين والمطرودين وكذلك ليقدم القضية الفلسطينية للشعب الأمريكى باستفاضة كذلك يظهر أثره في تقديم صورة فلسطين ومشكلاتها إلى العالم كله.

## 5

## ما علاقته باليهود؟

ما الشيء الموجود في شخص سعيد ويشكل تهديدا من وجهة النظر الصهيونية؟ هذا ما نجده في كتاب «ذكريات ممنوعة»<sup>(1)</sup> لإيله شوحاط، وهي يهودية من أصل عراقي، هاجر أهلها الى اسرائيل في مطلع الخمسينيات. ونشطت في اسرائيل في الحركات اليسارية والشرقية الاحتجاجية قبل ان تغادر اسرائيل لتستقر نهائيا في اميركا، حيث تعمل الآن أستاذة العلوم الثقافية في جامعة نيويورك. ناشطة إنسانية ومناهضة للصهيونية وللكولونالية. والكتاب عبارة عن مجموعة مقالات وابحاث. قبل أن نجيب عن هذا السؤال، يجب ان نلقي نظرة على صور القوميات الاخرى، وفي الغرب بشكل خاص، و كيف يتم تقديمها وكيف تقدم هي نفسها؟. سيكون من الممتع ان نتفحص على أي نحو يتم بناء شخصية ادوارد سعيد في اطار سياسة القبول على ضوء المسألة المعقدة، مسألة اسرائيل/ فلسطين. تحوي الكتابات التي تدرس الموجة الاخيرة من المتحدثين الفلسطينيين ما يكفي ليشير الى ان الخطاب السائد في الولايات المتحدة واسرائيل ليس متزعجا من

١- ذكريات ممنوعة - ايه شوحاط - ترجمة إسماعيل دبعج - دار كنعان - سوريا -

مضمون الحجج فحسب، بل من طريقة عرضها ايضاً، أي اننا، بكلمات اخرى، نتعامل هنا مع سياسة الاسلوب. لا تستوي شخصية المتحدثين الفلسطينيين من أمثال سعيد و ابراهيم ابو لغد وجيمس زغبى ورشيد الخالدي مع الصورة النمطية للعربي بالشاربين الكثرين والانف النسري والانجليزية المهلهلة بلكنة عربية ثقيلة. وهم، إضافة الى ذلك، يتحدثون من واقع معرفة معايير الحوار الاميركي وبتضلع في قواعد اللعبة الاعلامية الاميركية، فسعيد، على سبيل المثال، يتمتع بصورة متميزة لأكاديمي من جامعة ارستقراطية (كولومبيا)، ما يحدث شرخاً في الخطاب الصهيوني الاوروبي مركزيا من جهة السياسة التي يتتهجها الاسلوب الاسرائيلي في عرض الامور: فيما انه تم تصوير العرب بشكل دائم بصفتهن النقيض المباشر لكل ما هو غربي، فإنه من المزعج -على نحو خاص- مجرد فكرة وجود مُتحدِّث باسم الحقوق الفلسطينية العربية ومتمكّن من أسرار الثقافة الغربية. يبدو أننا هنا، على المستوى الثقافي، امام خلط في المقاييس. فهذه نقطة حساسة على مستويين: على المستوى السياسي من ناحية تصور اسرائيل عن ذاتها بوصفها دولة غربية، وعلى المستوى الثقافي من ناحية الدعاية الاسرائيلية الرسمية التي تعلمت دروس الثقافة الامبريالية الممتعة والتي تواصل رسم صورة العربي بصفته جاهلاً بكل ما له صلة بالحضارة الغربية. يقلل هذا الخطاب من قيمة اللقاءات التاريخية بين العرب وأوروبا (وخاصة أثناء «العصر الذهبي» في ايبيريا وعلى امتداد مئات السنين من الاحتلال

---

■ ٥ - ما علاقته باليهود ؟ ■

الكولونيالي) كما لا يوجد متسع مفاهيمي للعربي كي يكون ايضا غريبا ويتمتع بثقافة مطعمة مركبة. كان لهذا التمنيط للعربي أهمية كبيرة بالنسبة الى دولة اسرائيل القومية الواقعة جغرافيا في الشرق الاوسط و التي يتوسع خيالها في «الغرب».

فضلا عن ذلك، فاسرائيل «تسوق» نفسها، من الناحية الجيوسياسية، بصفتها حليفة المصالح الغربية في المنطقة. في اثناء الانتفاضة الأولى، على سبيل المثال، أبرزت دعايات وزارة السياحة الاسرائيلية في التلفزيون الاميركي هذه الصداقة الجيوسياسية بقولها: «تعالوا الى اسرائيل، تعالوا لتكونوا بين أصدقاء»، واختارت عائلة اميركية بيضاء بصفتها عائلة اميركية «نموذجية»، لتظهرها مع نظيرتها في اسرائيل في صداقة حميمة بين العائلتين. تخلق الصور التلفزيونية التي من هذا القبيل الانطباع بأن ثمة تحالفا طبيعيا بين الغرب واسرائيل، بينما لا توجد أي رابطة بين الغرب والعالم العربي. ان كون سعيد اخصائيا في ثقافة الغرب «الراقية» يهدد، وان كان ضمنا فقط، الخطاب السائد.

وتؤكد التقارير حول سعيد في الصحافة الاسرائيلية على انجليزيتته الممتازة وكأنها تشكل جزءا من مؤامرة خادعة: فلو رأى الاميركيون الحقيقة الجوهرية القابعة خلف استعارات ورنين انجليزيتته البليغة لما وقعوا تحت إغواء كلماته. وحيث ان اللغة تلعب دورا ترميزيا مهما في ايديولوجيا الثقافة، فإن انجليزية المثقف العربي تربك وتشوش ثنائية الحضارة البربرية. لمزيد من السخرية، فإن

الخطاب اللاسامي هو الذي كان قد استخدم اللغة كفكر لإثبات ان يهود اوروبا سيقون أجنب للابد بسبب ماهيتهم . ولقد كان في إغلاق طريق «الحضارة» امام اليهود بُعد لغوي ايضا . فالألمانية، هكذا زُعم، لن تكون ابدا في حيازة اليهود حتى وإن أجادوها إجادة تامة، وذلك لأن «هم» يتمون لعرق آخر، ولأن اللغة السرية الخاصة، هي اللغة الاصلية التي عبرت عن جوهرهم اليهودي الذي لن يستطيع ان يكون ألمانيا ابدا كذلك طبقاً لحوادث الهولوكوست . وبقايا هذا الخطاب حاضرة في الصور التي تمتاز بها الأدبيات الإسرائيلية حول الفلسطينيين الاميركان . ثنائية اللغة هي احدى سمات المنفي والمنفى، ولكن هناك تلميح الى سكان قارة اميركا الشرقيين، العرب الاميركان، بأنهم انما يخفون وراء انجليزيتهم مؤامرة عربية . تظهر هذه الاكتشافات بتواتر مكثف في مقال طويل نُشر في ذروة الانتفاضة في «يديعوت احرونوت» (٣) تحت عنوان «رجال م ت ف (اي منظمة التحرير الفلسطينية) في الاعلام مرفقا بصورة ضخمة لادوارد سعيد وابراهيم ابو لغد أُلْتُقِطت فور لقائهم مع جورج شولتز» . (نفس تلك الصورة نُشرت ايضا في صحيفة عصابة الدفاع اليهودي التي لقبّتهم «بروفيسورات م ت ف» . اهتمت المقالة بـ «فلسطينيين يحتلون الاعلام الاميركي» وركزت على حقيقة ان «شارحي م ت ف في الولايات هم مجموعة من المثقفين الفلسطينيين، ذلّقي اللسان ومحنّكين وخبراء في مادتهم ويتحدثون الانجليزية بطلاقة . كلهم يتحدثون ويتصرفون



وكانهم اميركان، وهم بالفعل كالاميركان». وتبرهن المقالة هذا التشخيص بواسطة مقابلات مع مستشرقين اسرائيليين: «كلهم سوبر ستار. انهم رجال مؤثرون، ذوو مكانة أكاديمية مرموقة، ويستغلون موقعهم، دون كايح، من أجل الدفاع عن قضيتهم الوطنية. وأنا لا أقول ذلك ذاماً. انهم محنكون مَلِسُون. يبدو انهم احيانا وكانهم بورق من الزجاج» (...). ويقول البروفسور ايلي ريخس، المستشرق الاسرائيلي الذي يدرس في الولايات المتحدة: «أسلوبهم محترف. فلا تجد عندهم بعدُ الدعاية الانفعالية التي وسمت الناطقين باسم (م ت ف) سابقا. لن تسمع منهم اتهامات غير مقبولة عقليا مثل (انتم تريدون تصفية العرب). هذا الاسلوب اختفى. رسالتهم تبدو أكثر اعتدالا من الرسالة الاسرائيلية».

هناك مقارنة واردة في هذه الكتاب بين سعيد و نتنياهو غير مفاجئة رغم ان كلا منهما يقف على الطرف النقيض في السياسة. فتنتياهو، المتحدث عن وباسم «العالم المتحضر» (أي اسرائيل والغرب على عكس الشرق العربي غير المتحضر) يصوغ كلامه بأميركية صقيلة، وينظر اليه، بإنجليزيتة الطلقة الخالية من اللكنة الاسرائيلية، كمن يقدم رؤية ممنهجة ومنطقية. يمثل نتياهو الفانتازيا الاسرائيلية حول الامركة ويعزز صورة اسرائيل ككيان غربي، ليس أمام العالم فقط بل وأمام اسرائيل نفسها. لذلك فإن عمق إلمام سعيد بثقافة الغرب وأسلوبه المهني يفككان الصياغة الصهيونية للهوية الاسرائيلية التي تضعها في علاقة تضاد مع الهوية



العربية . ومع الكتاب يناقش أسلوب متحدثين عدة من العرب الأمريكيين البارزين ، الا أن الكاتبة قد افتتحته بادوارد سعيد وتمحورت في كل متنه على أساليبه الـ «الدعائية» : «يعرف ادوارد كيف يقوم بعمله . فمقالته حول ياسر عرفات في مجلة «انترفيو»<sup>(1)</sup> النيويوركية التي كانت ممتازة . كل شيء كان في الداخل : عرفات بخف بيتي ، عرفات كمقاتل من أجل الحرية ، كرجل دولة ، كصديق وفي ، كفيلسوف . جاء سعيد مع النبذة عن حياة عرفات الى «انترفيو» كجزء من حملة الدعاية الفلسطينية في الولايات المتحدة . انها حملة ذكية وماهرة ومتشعبة وناجحة . سعيد ضيف دائم ومن أهل البيت المحبوبين لدى الاعلام الاميركي ( . . . ) . ان مجلة انترفيو غير مخصصة بالضبط لنموذج كعرفات . . . ان تركيبة عرفات انترفيو تثبت ان الدعاية الفلسطينية مأكرة وفاعلة ومؤثرة . انها تدرك انه ينبغي حشر صورة عرفات في مجلات إعلامية ليست إخبارية بامتياز ولا سياسية بامتياز . وكما قلنا ، فلقد عرض سعيد عرفات إنسانيا مصمما صاحب حس فكاهة . الاسرائيلي الذي ظهر هذه السنة في انترفيو في نبذة حياة موسعة . وهنا عرفات ! لقد تم تجاوز الحاجز : فعرفات الارهابي أصبح موضوعا شرعيا جدا عند مجلة راقية غير سياسية ، ثقافية ، غريبة الاطوار قليلا ، وأسلوبية جدا . ولكن ، فلربما بدون ادوارد سعيد ما كان عرفات يستطيع ان يصل بسهولة الى هذه المجلة . أي

١- راجع جريدة السفير عدد ٢٤-١٠-٢٠٠٣ ترجمة اسماعيل ديج .

لعل سعيد هو القصة الحقيقية. لعله هو والبروفسور ابراهيم ابو لغد، ومعهم ايضا مجموعة اخرى من الفلسطينيين الاميركيين من البروفسورات ورجال الفكر الذين يشكلون جيش الدعاية الفلسطينية في الولايات المتحدة. لقد استضافت الانترفيو عرفات لأن سعيد، وهو بروفسور الآداب في جامعة كولومبيا، رشح لها اياه (...). ادوارد سعيد مثقف ايضا، وكذلك صديق جيد لعرفات، وأميركي، وحسن الصورة وذو صلات لا يمكن تخطيه أو تجاهله لأنه مصنوع من مادة صلبة...»

هذه الصورة المتشكلة من السلاسة والنجاعة والمهنية، تزعج التقسيم الثنائي بين «نحن» (الغرب الذي يشمل اسرائيل) وبين «هم» (الفلسطينيين، الارهابيين العرب). ان صورة الفلسطيني الجديدة هذه تجتاز حدود الهوية كما رسمها الخطاب الاسرائيلي، ولذلك فإنها تثير في الاسرائيلي الخوف على هويته هو:

«معروف ان سعيد، من بين الدعائين الفلسطينيين في الولايات المتحدة، هو الـ«سوبر ستار»، على حد تعبير الدكتور يوسي اولمرت. ويقول اولمرت، مع ذلك، فالرجل لا يتورع عن الكذب ولا عن تحريف الحقائق ولا عن الحيل القذرة وفي الضرب أسفل الحزام. ليس هو بالمتمكن بالحقائق كبعض زملائه، ولكنه يتمتع بكل ما هو مطلوب للنجم الاعلامي في الولايات المتحدة: انجليزيتة لا تشوبها شائبه وخالية من اللكنة الغريبة. مظهره ممتاز، كاريزمي، أنيق ولامع. ولا تعوزه الاجابة ابدا».

ويتواصل وصف عمل المتحدثين الفلسطينيين بأنه عملية تسيطر فيها (م ت ف) على الشاشة الاميركية، وبما أن «الشاشة هي الوعي الاميركي» فإنهم «يسيطرون على الوعي». وتؤكد الكاتبة: «في اسرائيل يدركون ما يجري». أي حتى عندما يعبر فلسطينيون مثل سعيد عن رغبتهم في إجراء حوار فإنهم يفسرون هذه البادرة بأنها مكيدة عربية. فالمقالة تلمح الى أن صورة المثقف الفلسطيني كجيد في الظهور الاعلامي وكصاحب لغة إنجليزية طليقة ليست أكثر من ركيزة اخرى تستهدف تضليل الاميركيين السذج الذين يأسرهم سحره على الشاشة بسهولة. ان التلاعب بالالفاظ في العنوان «رجال م ت ف في الاعلام» هو من سمات النغمة والخطابة والمقاربة التي تفسر أية هوية فلسطينية غير نمطية بأنها دلالة على مؤامرة فلسطينية.

تنطوي مسألة الأسلوب على أهمية رمزية في الخطاب الكولونيالي. يمثل رفض أسلوب المثقف ضد الكولونيالي النموذج الكلاسيكي في هذا الخطاب الذي يصنف الأقوام وفق معايير ثقافية، البعض في التقدم والبعض في التخلف. وترتدي مسألة الأسلوب أهمية إضافية في أجواء الإعلام الغربي بكل ما له صلة بالصراع الاسرائيلي الفلسطيني. ان الهجوم على سعيد تنبئ بقدرته على المس بصورة اليهودي كضحية، هذه الصورة الاساسية في الخطاب الصهيوني والسرديات اليهودية. لقد عبر سعيد عن صعوبة رواية السردية الفلسطينية القومية بعلاقتها مع تاريخ ضحايا

الكارثة. بعبارة أخرى، فلكي يكون المثقف الفلسطيني قادرا على التحدث باسم التاريخ الفلسطيني، ينبغي عليه ان يتعامل مع الخطاب الذي يعرفه الاعلام، وهو خطاب الجالية اليهودية (الاوروية) التي غدا طرحها لنفسها متماها مع تاريخ قمعها. حتى في اللغة الإنجليزية، فإن المصطلحات التي تتعامل مع الصراع الاسرائيلي / العربي مأخوذة في الكثير من الاحيان من الخطاب الاسرائيلي الرسمي. فعلى سبيل المثال، يُطلق في الاعلام الاميركي على حرب عام ١٩٤٨ اسم «حرب الاستقلال» وعلى حرب ١٩٦٧ اسم «حرب الايام الستة». بينما يخلو قاموس المصطلحات الأمريكي من أي ذكر تقريبا للمنظور العربي الذي يطلق اسم «النكبة» على حرب ٤٨ واسم «النكسة» على حرب ١٩٦٧.

ال «تقليد» الفلسطيني: أولت أعمال المثقفين الفلسطينيين خلال العقدين الأخيرين، اهتماما بمسألة كتابة هوية فلسطينية خارج نطاق الخانة التبسيطية «العرب». لقد أفضى اضطهاد الفلسطينيين في الدول العربية، منذ هزيمة عام ١٩٦٧، الى يقظة وطنية فلسطينية متميزة عن العربية. شكلت أحداث ١٩٦٧ نقطة انعطاف في التاريخ الفلسطيني، وحفزت الفلسطينيين لصياغة تعريف ذاتي للهوية، اذ لم يكن من الممكن إلا بتخصيص من ذاك النوع فتح كوة للسردية الفلسطينية. فمذاك لم تعد الاراضي المحتلة تحت السيطرة المصرية او الاردنية وأصبحت ميدان نشاط غير

خاضع لنظام عربي، ولم يعد الفلسطيني الذي يقاتل الاحتلال الاسرائيلي يرتدي سُرّة اردنية او مصرية او سورية، بل كان يضع على رأسه الكوفية الفلسطينية. وبالمقابل شهدت صورة الفلسطينيين كلاجئين «سليين» إعادة تشكيل في الاعلام الغربي، فأصبحوا «إرهابيين» بينما أطلق عليهم الخطاب المؤيد لهم اسم فدائيين او محاربين من أجل الحرية.

وصورة اليهودي تعرضت هي الأخرى كذلك الى إعادة تشكيل بعد تأسيس دولة اسرائيل. فاللاجئ «ضحية اللاسامية» غدا في الاعلام الاميركي بطلا كلي القدرة يقاتل من أجل التحرر اليهودي. فبينما أُسبغت على احدى المجموعتين اللاجئتين (اليهودية) اسطورة البطولة، تقرر على الاخرى ان تقوم بدور «الشرير المريع». لقد أتاح الخطاب عن الصبار تحويله من لاجئ سلمي الى بطل يهودي على غرار بول نيومان في فيلمه «الخروج». ففي هذا الفيلم يصار الى تأكيد الوشائج الثقافية والجيو سياسية القائمة بين الصبار وبين الواسب الابيض البروتستانتى الاميركي. وقد كان من شأن إبراز دور الصبار كأنه نجم التجسيد للانجلو اميركي الذى يزيل عن النمط اليهودي تلك التلوينات التي تقع، في مبدئها، موقعا سلبيا في الفكر الغربي، ولتحلّه محل البطل المرغوب فيه. لقد تجسدت في شخص بول نيومان كل من القوة البطولية للجندي الصبار وللمقاتل الاميركي ليمتزجا في اسطورة واحدة ما كانت ممكنة الا بفضل الرابطة الاسرائيلية الاميركية

سياسيا وثقافيا. تومئ السردية في الفيلم الى ان الواقع الاسرائيلي قد «طبع» اليهودي لدرجة ان لاساميا انجليزية يتفاخر بقدرته على تشخيص اليهود، ينظر في عيني الصبار (نيومان) ولا يستطيع التعرف عليه كيهودي. وتأخذ الصلة الصبارية تعزيزا إضافيا بالمستوى اللغوي للفيلم، اذ بينما يتحدث الناجون من الكارثة المهاجرون الى اسرائيل الانجليزية بلكنة خاصة، نرى البطل الصبار يتحدثها باللكنة الاميركية السائدة. ويهود أوروبا الذين نظرت اللاسامية الأوروبية اليهم كشرقيين، اصبح بمقدورهم، من الآن، ان يُقبلوا في الحُضن الغربي «مجددا» عبر الفعل الصهيوني الذي حفّز الانفصال الفيزيائي عن أوروبا، ولكنه المؤمن، في الآن ذاته، بالارتباط «الروحي» المتجدد معها. لقد كانت إقامة دولة في الشرق تحمل طابعا غربيا بمثابة شهادة على عملية إعادة تكوين يهود أوروبا الى «شعب عادي». وفي مقابل هذا لم يفز العرب الفلسطينيون بسبب شرقيتهم «المغروسة» فيهم بصفة «غربيين متنورين»، كما حُرّموا في حبيكات الافلام والكتب من لعب دور الابطال الذين يقاتلون من أجل تحررهم. وحيث ان رواية الوطنية الفلسطينية صيغت في اطار الصراع ضد الكولونيالية، سُلّبت منهم اية شرعية تمثيل غربية.

مبعوث الغرب الاسرائيلي، ال «يهودي الجديد»، شرع يحتل في الولايات المتحدة دور مبعوث الغرب، ليس بسبب تماهيه مع الغرب فقط، بل ايضا بسبب تماهي الغرب مع ممثله الشرق

أوسطية: إسرائيل. أسست دولة إسرائيل صورتها الايجابية في الغرب على أساس دعوى أخلاقية تربط تاريخ ضحايا اللاسامية بمثل ثقافة التنوير الاوروبيمركزية (كونية، تقدم، إنسانية). وطالما أقدم ممثلوها الرسميون (قادة مثل بن جوريون وجولدا مئير وابا اييان وفي وقت متأخر بنيامين نتنياهو) على وصفها في الاعلام الاميركي بأنها جزء من «العالم المتحضر»، وكثيرا ما عزز هذا القول بالادعاء أن إسرائيل هي الديمقراطية الوحيدة في الشرق الاوسط، كما لم تدخر المؤسسة اليهودية في الولايات المتحدة جهدا لغرس التاريخ اليهودي وفق التفسير الصهيوني في وعي وضمير اميركا، وبالفعل غدت اليهودية متماثلة بالصهيونية والاسرائيلية، وأصبح المصطلحان كلمتين مترادفتين. وللتذكير فقط، فإن الصهيونية ظلت حتى اواخر الاربعينيات حركة اقلية بين يهود العالم. أدى تأسيس منظمات صهيونية في الولايات المتحدة الى ترسيم التفسيرات للمصطلحات من قبيل «منفى» و«شتات» و«عودة الى الوطن» باعتبارها سردية يهودية متفردة. وقد أفلحت هذه المؤسسة، منذ الكارثة، في وضع اليهود في مركز النقاش في كل مرة يُذكر فيها اسم إسرائيل، وان تحيل الى الهامش غير الشرعي كل نقد للصهيونية واسرائيل.

بهذا المعنى فإن كل إدخال لمصطلحات «منفى» و«شتات» و«عودة الى الوطن» من زاوية الخطاب الفلسطيني الى أعماق الوعي الغربي يشكل خطرا على مركز اليهود الراسخ كممثلي



الفضيلة الحصريين في هوامش الغرب المحترمة. وقد أقيمت رقابة على درجات متفاوتة من الإحكام على استخدام تعابير من قبيل «منفى» عندما توضع في سياق غير يهودي. (تقول الشائعات ان معارضة ثارت على استخدام المجلة الفصلية الثقافية «دياسبورا» المصطلح الذي في عنوانه لأنه عزاه الى الى قوميات اخرى غير يهودية مثل الارمن والفلسطينيين). والكارثة كذلك طُرحت وكأنها خاصة باليهود ولذلك تدعى «الكارثة» بأل التعريف. لذلك، على سبيل المثال، رفعت منظمات يهودية عقيرتها بالصراخ عندما حاول الهنود الاميركان شرح الكارثة التي حلت بهم بواسطة المقارنة بين كولومبوس وهتلر بقولهم ان كولومبوس هو الذي ابتداء العملية التي انتهت الى إبادة مئات الملايين من الهنود في أرجاء القارة. ولكن، يتضح، ان المطلوب من الشعوب التي أُيِّدت بمنهجية عنيفة في اميركا ذاتها ألا يكتبوا تاريخ إبادتهم بمصطلحات الكارثة. هذه الكلمة التي تعتبر ملكا يهوديا.

وفي السياق الاسرائيلي الفلسطيني حتى استخدام مصطلحات من قبيل «منفى» و«عودة» كان من شأنه إثارة بعض النقاد الثقافيين الصهيونيين، فكان هناك من زعم، على سبيل المثال، ان سعيد يختلق سرديّة بدافع الحسد للسردية الصهيونية. وكثيرا ما نبعت هذه التهمة عن مركزية اثنية يهودية تفترض ان اليهود يمتلكون الحق الحصري على مصطلحات «المنفى» و«العودة». نفس هؤلاء النقاد والذين لا يعتد بهم في تاريخ وثقافة الفلسطينيين، قرروا ان



الخطاب الفلسطيني يفتقر الى رموز قومية واضحة. جرى تشخيص عمل المثقف الفلسطيني كمحاولة لخلق محاكاة لروايات يهودية في ظرف أخذ فيه ساعد المؤسسات العربية في الاشتداد في الواقع الأميركي. رغم ان المؤسسات العربية الاميركية اقيمت في منتصف الخمسينيات لكي تناضل، من بين امور اخرى، ضد سياسة الادارة الاميركية المؤيدة لإسرائيل، رغم ذلك، فإن صوتها العلني بكل ما يتعلق بقضايا العرب في الولايات المتحدة وبالشرق الاوسط ككل لم يبدأ في الاشتداد إلا بعد حرب عام ١٩٦٧ ان مقالة يديعوت احرونوت حول «رجال م ت ف في الاعلام» تعبر وبشكل سافر عن الخشية من التنامي الحالي للمنظمات الفلسطينية في الولايات المتحدة، هذه المنظمات التي يعتقدون انها تقليد للمؤسسات الصهيونية وأسلوب عملها.

يشكل مجتمع يهود اميركا نموذجا للمحاكاة من قبل العرب. فمنذ عام ١٩٦٧ نبتت عشرات المنظمات العربية الفلسطينية المماثلة لتلك اليهودية. فالاتحاد الوطني الفلسطيني في الولايات المتحدة يشبه في وظيفته للوبي ايباك اليهودي، ومنظمة الغوث الفلسطينية اقيمت في ديترويت عام ١٩٧٨ على غرار منظمة جوينت، والحباية الفلسطينية الموحدة اقيمت عام ١٩٨٠ وحتى حروفها الاولى UPA تشبه UJA .

في نهاية عام ١٩٨٠ اقيمت منظمة عرب اميركا الناهضة للافتراء على غرار منظمة مكافحة الافتراء اليهودية. وفي عام

١٩٨٢ اقيمت منظمة النساء العربيات في الولايات المتحدة على شكل منظمة ويتسو. «الكونجرس الفلسطيني الاميركي الاول» انعقد في فندق بلتيمور في نيويورك. وفي نفس القاعة التي دعا بن غوريون منها في عام ١٩٤٦ الى اقامة دولة اسرائيل، وقف سامية بارسون، رئيس الكونجرس العربي، ودعا الى اقامة دولة فلسطينية مستقلة، آملا ان يكون الحين قد حان ليفهم العالم الرمز.

في هذه المقالات يُذكر ادوارد سعيد بشكل صريح بصفته وريث ابا ايان: الممثل الابرز لليهود «المتورين» الذي لغته الاصلية هي الانجليزية: «بمعنى معين، ورث سعيد مكان ابا ايان لدى الاعلام الاميركي. فلعدة سنوات مثل ابا ايان اسرائيل الصغيرة، الشجاعة، الذكية، العاقلة». حتى وإن كان بالامكان التحدث عن تأثير الفعاليات الصهيونية على نظيرتها الفلسطينية، فإن هذا لا ينفي ان القصص والرموز الفلسطينية تعكس تاريخهم. بل واكثر من ذلك، فالانغماس في مسألة المحاكاة يفصح خوفا خفيا كامنا من فقدان موقع اسرائيل المتفرد بصفاتها الممثلة الاخلاقية للضحايا التاريخيين (بأل التعريف) عند امم الغرب، وهذا هو التعبير عما أطلق عليه «حسد المَقود Subaltern envy».

المنفى، النفي والضحية مسألة الضحية هي مسألة حاسمة في تمثيل الواقع والهوية اليهوديتين من زاوية مشروع التحرير الصهيوني. إلا أن فكرة انه بالامكان رواية تاريخ ضحايا آخرين،

بل وان جزءا منهم هم ضحايا القومية الوطنية اليهودية، تؤدي الى معارضة عنيفة، وفي حالة الليبراليين تؤدي الى عمى ابستمولوجي (معرفي) والى بلبلة فكرية. يتكشف الخطاب الصهيوني عن اعراض عدم راحة من مجرد فكرة ان اليهود انفسهم أنتجوا ضحايا. الموروث اليهودي الشعبي يبرز معاناة اليهود على يد اولئك الذين أرادوا إهلاكهم، والاعياد اليهودية تنقل من جيل الى جيل قصص الاضطهاد على يد عدد لا يُحصى من الاعداء، بيد ان التفسير السائد للتاريخ اليهودي لا يفسح مجالا للحديث عن اليهود كمضطهدين جماعيين. وعلى امتداد سنوات والتأريخ الصهيوني ينطلق من ان اليهودي، واستمراره الاسرائيلي، هو ضحية فقط. هذه الثقافة لم تُعدّ مفكرها لسردية اخرى. بعد عام ١٩٦٧، وعندما وجد مثقفون اسرائيليون انفسهم في موقف واضح لدولة محتلة، كيف كان عليهم المناورة مع هذا الواقع بما يتعلق بكتابة التاريخ الذي عرفوا انفسهم به كضحايا ازاء جماعات مجاورين؟ كيف كان عليهم التعامل مع معكوس قصة داوود وجوليات، حين لا يكون بأيدي الاطفال الفلسطينيين سوى المقالع وهم يتواجهون مع الجنود الاسرائيليين المدججين من أخمص أقدامهم الى رأسهم؟

كإجابة على هذا التحدي تصرفت حركات السلام الصهيونية الليبرالية هذه المرة ايضا كأنما باشتراط مسبق، انطلاقا من اطار «خطاب» الضحية المعروف لها، فرفعوا ادعاءات وصفت

«السلامنجي» الاسرائيلي بصفته الضحية الأساسية للنزاع الاسرائيلي، وبشكل غير مباشر خلقوا تناسقا مزيفا بين المحتل والواقع تحت الاحتلال. ومتحدثون مثل عاموس عوز أثاروا التساؤل البلاغي: اين النظر الفلسطيني لحركة «السلام الان»؟ هذا الاستغلال يغفل حقيقة عدم التناسق في موازين القوة بين اسرائيل والفلسطينيين، وفي الوقت ذاته يغذي نسقا يطلب من الواقع تحت الاحتلال مسؤولية عن الاحتلال تتساوى مع مسؤولية الجانب المحتل. في هذا الاستغلال يتم توجيه النقاش الى نحو «السلام الان فلسطيني»، ولكنه بذاك، وبشكل غير مباشر، يحرف النقاش عن شطب تاريخ الاقتلاع الفلسطيني. يتمحور الخطاب «السلام الآن» على عذابات الصبارين، الباكين وهم يطلقون النار، الواقعين بين اليمين الاسرائيلي وبين الفلسطينيين. ويتم في هذا الخطاب تصوير رسم صورة الصبار كالحمل الوديع المأخوذ الذي يتعذب على مذبح السلام.

تمس كتابات ادوارد سعيد الطابع المتناقض للهوية الاسرائيلية اليهودية الصهيونية، ويعبر عنه في عناوين كتبه ومقالاته مثل «الصهيونية من وجهة نظر ضحاياها» و«ذنب الضحية». بل وأكثر من ذلك، فكتابات سعيد تشهد على سخرية تاريخية لجهة ان الرموز الثقافية لليهودية، وبالاخص الخطاب الصهيوني، من نفي ومنفى وترحال ووطن، انما تصف الحال الفلسطيني. ولم تضطر اسرائيل الا في حالات منعزلة ان تتواجه مع فلسطينيين «متورين»

يتحدثون من داخل الغرب ويجرون في الوقت ذاته تفكيكا يفكك اسطورة «العالم المتحضر». المثقفون الفلسطينيون يقلقون راحة سفراء صورة اسرائيل لانهم «كما يُزعم، تسللوا الى الغرب، الى ميدان نشاط بقي الى وقت متأخر ارثا حصريا لإسرائيل. من ذلك على سبيل المثال ان نقد سعيد لمايكل وولتسر يمس هذه المسألة: «ابحاث وولتسر السياسية والاخلاقية موجهة الينا في الغرب وكتاباته مليئة بنحن وبما يخصنا...». هذا الادعاء من قبل وولتسر يفترض ان «نحن» الغرب يظلل، من بين آخرين، اليهود دون العرب. على هذا النحو تُخلق طائفة من القراء مجندة للتفسير الاوربمركزي.

احتكار المنفى : قضية الضحية ومصطلحات «المنفى» و«المنفى» مترابطة في ما بينها وتغرق النقاشات بين اليهود الصهيونيين وبين الفلسطينيين. حتى اللحظة، في السياق الثقافي الاميركي، كان الخطاب الرسمي اليهودي يحتكر تعابير منفى ومنفى. لقد فهمت الصهيونية وظيفتها بأنها قلب خصائص الحياة اليهودية في المنفى رأسا على عقب وتحويلها الى خصائص شعب طبيعي وهو ما عبّر عنه بالقول «من المنفى الى الخلاص». بالنسبة للصهيونية كان أمرا لازما الانسلاخ عن أرض المنفى وعن ثقافة الشتات ومن ثم توحيد اليهود الـ«فوق مناطقي»/ العابرين للمناطق مع «التاريخ» انطلاقا من الخطاب القومي الذي يقول ان شعبا بلا ارض وبلا دولة انما يعيش «خارج التاريخ». والشتات الذي يجب لم شمله من اربع

اصقاع الارض وإعادته الى الارض الموعودة انما تعبر عن فرادة قومية اثنية في السردية الصهيونية. لذلك رأت المؤسسات الصهيونية في السردية الوطنية الفلسطينية التي تشتمل هي الاخرى مصطلحات المنفى والعودة، كابوسا مزعجا يطل عليها من المرآة. ففي كلا الخطابين، الفلسطيني والقومي الصهيوني، تتراءى بقعة جغرافية واحدة بصفاتها الفضاء الذي عبره تسعى هويات مقتلعة الى البراء من آلام التاريخ. الا ان الفرق الحاسم بينهما يكمن في ان محاولة الخلاص اليهودية أدت الى الازمة الفلسطينية. في الولايات المتحدة يقدم بعض الليبراليين اليساريين الالم الفلسطيني بشاعرية كقصة شعب خرج الى المنفى بالضبط من تلك «الارض الموعودة» الواردة في الخطاب الصهيوني، ويعرضون ايضا حلم العودة لتلك الارض بالذات. على هذا النحو يخلق التوازن بين المعاناة الاسرائيلية والمعاناة الفلسطينية. غير ان نقاشا من هذا الصنف يتجاهل التاريخ الذي أدى به جمع الشتات اليهودي في اسرائيل الى تشريد الفلسطينيين الى اربع اصقاع الارض. يمكن النظر الى منع ابحار سفينة العودة الفلسطينية عام ١٩٨٨، تلك السفينة التي كان مقررا لها ان تبحر من قبرص الى فلسطين بمناسبة الذكرى الاربعين للنكبة، كتعبير رمزي عن تحطم الحلم الفلسطيني بالعودة الى الارض، نفس تلك الارض عاد الى تخومها ابناؤها اليهود، والذين يعتبرون انفسهم ابناءها الوحيدين.

بالنسبة للصهيونية التي اتخذت موقفا يدعي العدل على

المسرح العالمي ، فإن مجرد تصور ضحاياها هي الفلسطينيين الذين أُجِّلوا على يدها ويحلمون بالعودة الى ارضهم ، ينطوي على نوع من العنف المفهومي الاستمولوجي . الصهيونية من زاوية رؤية ضحاياها (بما في ذلك ضحاياها من اليهود) تشهد على ان حتى تلك الحركات التي قامت ردا على الطرد ليست معصومة بالضرورة عن القيام هي ذاتها بفعل الطرد بحق آخرين . في رده على مقالة سعيد «الصهيونية من وجهة نظر ضحاياها» يركز الناقد رونالد ارونسون على الكارثة ، وكأنما يستطيع مجرد ذكر «الحل النهائي» ان تدحض حجج الفلسطينيين ضد الصهيونية . في هذا الانشاء المرصّي حرف ارونسون النقاش مرة اخرى الى اوروبا وضحاياها اليهود . تقفز حجتنا إلى الاستخدام السياسي في السياق الشرق اوسطي للكارثة ، وهو استخدام يجعل من التراجيديا التي حدثت في اوروبا وسيلة بلاغية تقطع الطريق على أي اعتراف بشرعية الوطنية الفلسطينية . على هذا النحو فإن كل محاولة لتقرير المصير في الشرق الاوسط ، وكل محاولة لنقد سياسة اسرائيل ، تصطدم بالرد الاوحد : الكارثة . الا ان هذا الخطاب يعاني من شروخ منطقية ، ذلك ان الرد على فظائع النازية لم يأت للنضال من اجل حقوق اليهود الاقلية في اوروبا ، بل جاء في منطقة اخرى وحارب ضد اناس آخرين ، الفلسطينيين ، الذين يدفعون من لحمهم على الافعال اللاسامية . ولكي يتجاوز هذا الشرح ، استخدم الخطاب الصهيوني البلاغة التي تشابه بين الفلسطينيين والنازيين ، كما يمكننا



ان نلاحظ في عدة افلام مثل «الهضبة ٢٤ لا تجيب» (١٩٥٤) و«اكسودس» (١٩٦٠) و«سارقو الصندوق الضائع» (١٩٨١).

على امتداد اعوام والربط ما بين العرب واللاسامية ووضع الضحايا اليهود في قلب الصراع العربي الاسرائيلي مما حال دون الخطاب المؤيد لوجهة النظر الفلسطينية في الولايات المتحدة من التعبير عن نفسه. في هذه الاجواء المعادية، شرع المثقفون الفلسطينيون في إنتاج خطاب يعبر عن المصير التراجيدي الذي لحق بشعبهم. ففي مجرد منفي المثقف الفلسطيني ما يكفي ليشهد على ان الصهيونية مُنتجة للنفي. ومن ثم فالتهديد الذي يثيره سعيد، من حيث كونه يكتب عن منفي المثقف الفلسطيني، كامن اذن في قصة حياته ذاتها<sup>(١)</sup>. ومع ذلك، ولربما اكثر من أي مفكر فلسطيني آخر، لم يمتنع ادوارد سعيد عن المزج بين نقده لإسرائيل وبين اعترافه بما عاناه اليهود من اللاسامية، كما اعترافه ايضا بالتاريخ المركب لمنطقة فلسطين:

و(فلسطين) هي المكان الذي بزغت الاديان فيه، وفيه، كما يبدو، استقرت رسالات دينية مختلفة، وفيه نوع من الاكتظاظ والاصداء غير موجودة تقريبا في أي مكان آخر في العالم. وهو ايضا مكان

١- انظر ترجمة نادر ديب لكتاب ادوارد سعيد - تأملات في المنفى - دار الآداب - بيروت - ٢٠٠٤ .



صغير جدا ومزدحم. ان هذه التقاطعات، والتي هي لحمة نسيج الدعوى والدعوى المضادة، تلفت انتباهي الى درجة بعيدة. السؤال السياسي، بل وحتى الفلسفي، هو لماذا، بشكل عام، لم يكن النصر، في هذه البقعة، حليف الرؤى الداعية للاخوة بين الجماعات، بينما نجحت بدلا منها الرؤى الفردية؟

من بالغ الأهمية لي ان أفهم الانجذاب القوي الذي أثارته الصهيونية في الفكر الاوروبي... الصهيونية هي، كما يبدو، حركة وايدولوجيا التقطت فلول وبقايا جماعة متشظية من الناس الذين، من ناحية تاريخية، اضطهدوا واستغلوا وغبنوا وطوردوا في اوروبا، فجمعتهم في حركة قوية جدا خلقت الارض الجديدة. حيث توفر لها كل خصائص العنقاء الذي ينبعث من الرماد.

سعيد، والذي يسهر بشكل دؤوب على عرض المنظور الفلسطيني لإسرائيل، يعرب، في المقابل، عن تأملاته حول العوائق التي تقف في طريق المثقف الفلسطيني الذي يدق ابواب الغرب حاملا رسالة ذاك المنظور. غير ان هذه الصعوبات لا تمنعه من الاعتراف بالقضايا الحساسة للكارثة والاسامية. تمتاز اعمال سعيد بأسلوب جدالي نلمس فيه بعض الاحيان جهدا للتعلّم وللتخيل بل وحتى للتعاطف مع تاريخ اليهود في اوروبا، وفي الوقت ذاته يشير الى التناقضات وحتى الى اللامعقول الذي يرفعه هذا التاريخ في وجه المثقف الفلسطيني الذي يحاول فهم الحياة اليهودية في اوروبا:

من بالغ الصعوبة على الفلسطينيين الذي يشعر بأنه ضحية الظلم الذي اقترفه اليهود، اليهود الاسرائيليون، ان يتعاطف او ان يكون خلاقا وأن يتقبل تاريخ الكارثة ويقول: حسنا، نحن نغفر لهم ما فعلوه، لأنهم، بعد كل شيء، عانوا في التراجيديا التاريخية الكبرى الهائلة هذه، ونحن نتفهم حقيقة انهم أخرجونا من ديارنا وأنهم يضعوننا تحت الاحتلال وانهم يعاملوننا كمواطنين فئة ج، وانهم يقتلون اهلنا وانهم يحجزوننا في معسكرات... الخ، هذا كله نحن نتفهمه.

انظروا، لا أحد يستطيع ان يفهم هذا. يمكنك استيعاب الواقعة الاولى، واقعة الكارثة، ولكنك لا تستطيع ان تترجمها الى مصيرك المر، انا أعني كإنسان آخر، المصير المر الذي وقع عليك بأيدي هؤلاء الناس. من الصعب جدا فعل هذا. ومن الناحية الأخرى، فأنا أعتقد بصدق أنه من المهم جداً للفلسطينيين ان يحاولوا فهم مع اية قوة نحن نتصارع. لقد بذلت جهدا هائلا لمشاهدة فيلم الكارثة.. انه يستغرق من تسع ساعات ونصف الى عشر ساعات، وانا على يقين انني وزوجتي كنا العربيين الوحيدين بين الجمهور. وقد استطعت ان أحس وان أفهم الرعب الهائل، وانتابني إحساس بالخراب لأنني أدركت الكارثة كما هي، كما يدركها اوروبي او غربي. ولكن عندئذٍ، حينما وصلت الى النقطة التي قلت فيها ما معنى هذا بالنسبة لي، توصلت الى ان المعنى هو إضفاء الشرعية على ما وقع لنا نحن الفلسطينيين كشعب. ان هذا

اذن لا معقول . يمكنكم ان تدعو هذا تناقضا ، كما يمكنكم ان تدعوه تراجيديا ، الا انه لا يقلل من عزيمتك للنضال ضده .

يحاول سعيد ان يقدم مناظير متعددة ، بما فيها اليهودية بعض الاحيان ، انطلاقا من معرفته للاسامية التي عانى يهود اوروبا منها ، ولكن دون ان يفقد ايمانه الاساسي بضرورة اقامة دولة فلسطينية . حساسية سعيد ازاء هذه المواقف المتعددة نراها متبلورة في «خاصية الشتات» التي تتطلب «ليس زوجا واحدا من العين فقط بل نصف ستة منها ، وكل واحدة منها تتناسب مع الأمكنة التي كتبت فيها» . على الرغم من ، ولربما بسبب ، ما تتضمنه صياغاته من تراكيب دقيقة ، كان هناك من اتهمه بأنه الممثل الاكثر ديماجوجية من بين الفلسطينيين في الولايات المتحدة .



القسم

الأول

1

## الحياة فى المنفى

يتصدر النقد الأدبى الرحلات الفكرية لادوار سعيد، إضافة إلى أنه متحدث رنان عن حقوق الإنسان، وذلك أبايح له السياحة الفكرية حول العالم عبر الكثير من المجالات. ساهم ادوارد سعيد بشكل متراعى فى طرح فكرة تحليل خطاب<sup>(1)</sup> الاستشراق للنقاش، والسياسة المنشقة، وما بعد الاستعمار، مما جعله ينقد أقوى المؤسسات فى العالم.

قدم ادوارد سعيد -بوضوح- بعض المسائل الرئيسية التى تتعلق بالامبريالية (الهيمنة الغربية) خاصة فكرة "التخلف والثقافة" معتبراً العالم بأثره موطنه. لذا، نظر إلى الثقافات المتعارضة ومنح المثقف دوراً لتحرير الإنسان وتقرير نماذج ثقافية عبر إعادة تفسير

١- للمزيد عن موضوع الخطاب انظر الأفكار الرئيسية فى نهاية هذا الكتاب.

التاريخ. وبرؤية جديدة لنقد ادوارد سعيد للتاريخ يظهر أنه حقق فائدة هائلة عبر اليقظة الجبارة التي أحدثها في الفكر المعاصر والتي أدت إلى التنوع في ردود الأفعال إبان فترة إعادة هيكلة العالم التي شدت من عضد الاستعمار الماكر، وساعدته على مواصلة التحيز للسياسية العالمية والثقافة.

ولد ادوارد سعيد (١٩٣٥-٢٠٠٣) في فلسطين، ثم لجأ إلى مصر بعد نكبة ١٩٤٨، هاجر -بعد ذلك- إلى الولايات المتحدة حيث قضى معظم حياته منفياً عن وطنه. لذا تولد لديه إحساساً عميقاً بالانتماء إلى ثقافات الهامش، حيث الحياة في غمرة الانتهاك العنصري في الولايات المتحدة، مع الحزب اليميني الأمريكي المحافظ الذي أحرق مكتبه في يوما ما.

تعلم ادوارد سعيد تحمل تبعات المعارضة، وكتب عن المناخ

الظالم السائد فى العالم فى مذكراته "خارج المكان". كما أثار شعور ادوارد سعيد الجمع بين المتناقضين<sup>(1)</sup> مع الإحساس المتزايد بأن تكون دخيلاً - مسيحياً / فلسطينى يحمل اسماً انجليزياً تعلقته به كُنية عربية، وفى الآن نفسه مقيم فى الولايات المتحدة.

أثناء سنوات نضوجه الأولى، بينما كان طالباً فى الولايات المتحدة، ظهر بشكل تدريجى انعزال سعيد عن الثقافة الأمريكية الداعمة لإسرائيل، ومع هزيمة العرب من قِبَل إسرائيل فى حرب ١٩٦٧ حيث فُقدت بقية فلسطين؛ دفع ذلك ادوارد سعيد إلى الكتابة على نطاق واسع عن القضية الفلسطينية. وفى عام ١٩٧٧ انضم ادوارد سعيد إلى مُنظمة التحرير الفلسطينية التي صارت بالنسبة له بمثابة البرلمان فى المنفى. ومنذ ذلك الوقت حاول بإحساس راسخ أن يمتلك فلسفته الأدبية إلى جانب الاهتمامات الثقافية بالمصالح السياسية المعاصرة.

عَمَلَ سعيد على إزالة الفجوة بين الخاص والعام. لذا كان نقده الأدبى مُتَّفَقاً مع خبرته السياسية الشخصية، فضلاً عن جذوره العميقة التي شكّلت موقفه المعارض وسط مُحاولات مُخاطبة مصداقية السُلطة.

دونت قصة حياة سعيد بشكل جوهرى دال على أنه يجسد صورة للإنسان الذى كابد فى العالم، بعد أن رُويت على خلفية الحرب العالمية الثانية والسياسة الشرقية التي امتدت حتى اتفاقية

١ - يقصد الكاتب أنه الجزء الأول من اسمه غربى بينما الآخر شرقى وهى الفكرة نفسها التي طرحها ادوارد سعيد فى مذكراته خارج المكان.



أوسلو ١٩٩٣ التي شهدت على تسوية فلسطين. لكن الشئ الجوهرى فى هذه الأحداث التاريخية، هو قصة حياته التى تمثل الشكل البديل للرحيل، قادمون، مودّعون، منفيّون مما يولد الحنين إلى الوطن، والانتماء إليه بعد الارتحال عنوة.

يُدوّن سعيد إحساسه العامّ عندما يكون خارج المكان دائماً ' وهذا يتضح عبر الواقع "الهجين" الذى عانى منه، أو ' فى الفضاء البينى ' الذى يحتله بوصفه منفيّاً يعيش على الحافة وسط الهوية الثقافية. بينما يرى سعيد أن هذا الموقع هو أحد الفوائد العامة بالنسبة له، حيث يستطيع الكلام والكتابة بشكل هدام للواقع العالمى المضطرب، فبالنسبة له المُثَقَّف دائماً مُنفى أو مُهمّش " .

يشعر سعيد بألفة عميقة مع جوزيف كونراد، الذى يجد كونه مشرداً متوازياً مع تجربته هو نفسه أو كأن الإنسان فى ' فضاء ثالث '، تقريباً، خارج المؤسسة. مثل كونراد الذى استخدم كتابته كوسيلة لمنع تحطم نفسه عندما وعي بأن المنفى يصبح الإلهام لاستمرار استكشافه للأدب والسياسة. وتصبح النتيجة النهائية أن يكون الإنسان المنفى فى حالة حرب مع العالم 'الواقعى'، أى نضال المهاجر وفهمه من أجل إيجاد المستقر والمتغيرات ومن ثم. يصبح مشروع سعيد أحد سبل التحرر من نقل الأحداث الرسمية للتاريخ و'الحقيقة' بتشيد الوعي بالتواريخ السرية التى تحتوى على حقيقة الواقع التى تُقمع دائماً".

## الثقف والموقع السياسى

فى عام ١٩٦٨ بعد تكوين منظمة التحرير الفلسطينية أكد سعيد على ألا يمايز ما بين الشخصى و السياسى لأنه قد حان الوقت للاحتكاك الثقافى بالكاد فى السياسة المراوغة وحصيلة قراره كانت كتاباته المنشقة سياسياً بشدة فضلاً عن تدمير الحسابات التي تقدم تصورات الغرب عن الشرق.

ثم شهدت حقبة السبعينيات الانتشار عالى المستوى للنظرية النقدية الفرنسية تجاه العالم الانجلوساكسونى<sup>(١)</sup> وضمن هذا السياق اندرج ما عُرف بالدراسات الثقافية لما بعد الاستعمار(أو الدراسات الثقافية ما بعد الكولونىالية) التي انتظمت كى تتجسد كمؤسسة منتظمة فى الكتابة ومروجة لأفكار بعينها. وهو ذلك المشروع الذى بشر به وانتسب إليه اولا فرانز فانون وأيمى سيسير، ثم تعزز من قبل إدوارد سعيد بعد أن ظهر كتابه الجبار "الاستشراق" ١٩٧٨، الذى تمثل فيه أفكار الماركسيين<sup>(٢)</sup> الغربيين الآخرين. وقد أكد على أهمية الثقافة والفلسفة ضمن نموذج جرامشى وفوكو من حيث سلطة الاستراتيجيات الواقعية" وعلى ذلك تظهر فداحة مهمة التجديد ضمن سياق اقتصاد عالمى متوحش بعد تداعى المشروعات الاشتراكية، وبشكل خاص تصريحات المدرسة البرجوازية الغربية

١- نسبة إلى سكان انجلترا الجيرمان الذين وجدوا قبل الفتح الرومانى، لكنها تطلق فى العصر الحديث على الدول الناطقة بالانجليزية.

٢- نهج سياسى يتبع افكار ومبادئ كارل ماركس.

للفكر المسيطر المتلازمة لأفكار فرانسيز فوكوياما في كتابه 'نهاية التاريخ' والمشكلات المركبة لسعيد وصرامة عمل سعيد التي تستكشف الموضوعات النقدية للتمثيل الثقافي بواسطة التحولات المعرفية التي تتخذ لنفسها حيزاً تحت سيطرة النظام الاستعماري. "الاستشراق" و"القومية" و"فويا الغرب" (1).

ومن ثم يجب النظر في أعمال ادوارد سعيد الرئيسية التي يمكن أن تناقش في هذا السياق حسب موقعه كمفكر يُسائل التاريخ والثقافة والأدب كأنظمة للتفكير التي تمثل صورته المبتكرة لدواعي إبقاء تراكيب الهيمنة المعرفية والقوة. فدور المثقف وأهمية القضايا الثقافية وموقف الهوية تقف وراء التزامه الصارم بايديولوجيا السياق التاريخي قبل ممارسة النقد والانهماك في السياسة.

في محاضرات ريث (2) على البي بي سي في ١٩٩٣، يعرف سعيد المثقف بأنه المواطن المسؤول الذي يمارس المقاومة و يحاول دائماً وضع وجهات نظره خارج مجال المسلمات والمواقف الحزبية الجامدة. على خلاف فكر جان بول سارتر السلبي، الذي غير بشكل ملموس الموقع التجريدي الملائم.

اتخذ سعيد وضع السياسى النشط في كتاباته النقدية تلك التي تكاثفت كى تدل على كيفية رؤيته لأهمية الوعي النقدي للعمل

١- فويا الغرب: هي الرهبة الشديدة غير المنطقية من الأجانب وكرهيتهم.

٢- صدرت في كتاب حمل عنوان "لقلم والسيوف" وهي حوارات قام بها دافيد بارساميان، ترجمها: توفيق الأسدي-دار كنعان-دمشق-ط١-١٩٩٨.

الثقافي. والنظرة ' المتخصصة ' المتأصلة في الأحاسيس خاصة بالمنفى أو كأنه ' المهاجر الجديد ' الذي يعتقد دائماً أن سلطة ' الخيال اللعوب ' تتجسد في تغير-إلى الأبد- عن إدراكنا لكيفية وجود الأشياء وسيرها ' .

وهذا قد يدعو إلى الانتفاضة المتخيلة- أو الجهاد المقدس ' ضدّ واقع الإبداع المؤسسي القائم من قبل السلطات المفروضة ' . وعلى ذلك يجنح التدخل الأكاديمي لادوارد سعيد في النقاشات السياسية إلى تأسيس إستراتيجيات حقيقية عبر ترجمة نشيطة وذات علاقة بكلّ القيم والأشكال والتواريخ المتعلقة بالمشروع الاستعماري .

استخدم سعيد موقعه بوصفه منفياً للاستفادة من أنه يستطيع رفع نفسه فوق الرطانة المفرغة من أية فائدة ومن جبن المثقفين الأكاديميين الذين يرفضون دعم القضايا الأيديولوجية عندما يدعون كي يدلوا بدلوهم فيها . صيحة الرفض والمقاومة تند كتاباته عنها وتستحوذ على اهتمامات نقاد أمثال إيرنست جيلنير وإعجاز أحمد<sup>(١)</sup> . وقد كانت المكونات الأساسية للنقاد التي حدّدت مكانته في عالم من ضروراته الأساسية التي تُدخله في العمل العام، وفي الإطار النظري العالمي وباعتبار منزلة ادوارد سعيد بوصفه فلسطيني منفي مُهمّش .

١- إعجاز أحمد- الاشتراق وما بعده ادوارد سعيد من منظور النقد الماركسي-

ترجمة وتقديم: ثائر ديب- دار ورد- دمشق- ط١-٢٠٠٤ .

القصة الرئيسية فى حياة ادوارد سعيد -هنا- تتصادم مع التواريخ المحلية، والنقد الأكاديمى مع النشاط العام كل ذلك مرتبط بالانهماك السياسى الذى غمر نفسه فيه. ويمكن للمرء مشاهدة العمل وعناصر القصة الهجين للتاريخ الأدبى الذى ينبه إليه كل من الاحساس الجمالى وسياسة علم الجمال عبر ما وراء اللغات الاستعمارية والثقافة.

كان ادوارد سعيد فى مقدمة المساهمين -ثقافياً- فى خلق الفنون وتفسيرها مع التاريخ. وقد شدد فى ذلك على النقد الأدبى لكونه ضرورة تضم حقائق خبرة الإنسان الطويلة مع المؤسسات الاستعمارية ذات الجبروت والسلطة.

فى الاستشراق أظهر ادوارد سعيد كيفية المعرفة العربية البعيدة عن الأكاديمية وقد وسمت بالقوة والحافز السياسى، وتلك الاستنتاجات تم تعزيزها فى كتابه التالى "الثقافة والامبريالية"، حيث يظهر وعى الكاتب المبدع بتشكّل حسب غلبة المقاصد الاستعمارية التى سادت إنجلترا فى القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، الرواية والامبريالية التى يمكن أن تتجادل عقب تولدها عن تصادم ما.

بالنسبة لادوارد سعيد باعتباره مثقفاً إضافة إلى مسؤوليته النقدية بشكل خطر كل ذلك شكّل علامة على النقد العلمانى المهم الذى أثار انتباه قراء الغرب ووجه نظرهم إلى الثقافات غير الغربية

؛ للوقوف على إدراك المغزى المهم فى العمليات المتفاعلة والمستمرة فى التاريخ. وبالتالي تجول ادوارد سعيد من الأدب إلى التاريخ ثم إلى السياسة. ومن علم الاجتماع إلى الأوبرا ثم إلى الفنون. لذلك، يستعرض هذا الكتاب كتابات ادوارد سعيد التاريخية من ناحية ارتباطها بالممارسات الثقافية، فضلاً عن علاقة ذلك بالسلطة. وتحديد قدر ذلك ضمن أولوياتنا للوقوف على مكانة ادوارد سعيد فى الكتابة ضمن مناطق الثقافة والدراسات التاريخية؛ لأن هناك صلة راسخة بين التاريخ وما بعد الحداثة بما يستحق أن نتبعه. والسمة الصحيحة لذلك المراس تؤدي إلى استنطاق الحقيقة المُبهِمة المستقرة فيما وراء الحسابات التاريخية و فى الأغلب كان البعض يلقى باللوم على سعيد -تقريباً- لالتزامه بالتوحد مع نفسه بما لا يجيز لاحد الاتفاق مع الوضع النظرى المفرد الذى يُعرقل التواجد الجغرافى، لذا حاول سعيد التفاوض مع الغرب برغم موقعه فى سياق العولة.

رغم ذلك تصدى للهيمنة الثقافية باتخاذ موقف الخصم ضد أية تسوية مع نظم الهيمنة الغربية ومن ثم إنتاج المعرفة. كان -من ناحية أخرى- مدرك للصراع الثقافى مع الآخرين ومدافع عن من يحملون واقع الهجين، كما حث على رفض الاكلاسيهات البيانية المتعاقبة"، بينما كان يدرك أن تلك الاعتراضات القوية تصبح مقبولة خلال كتاباته التى تنافس طبيعة الانماط الاستعمارية المتأصلة التى تجنح إلى خطاب بديل دائم مدرك لاستراتيجيات القوة.

سؤال أن تكون متفياً يرتبط بشكل أكثر تعقيداً بعبور الحدود والهجرة التي جسدت التجارب المميزة للقرن العشرين. ومن أفضل النماذج الدالة على المهاجرين، شخص ادوارد سعيد. فموقع المنفى ربما يأخذ معناه عندما يُطرح على المشردين الأرمن أو اليهود أو الفلسطينيين الآخرين. المنفى المثقف الذى يجب أن ينفى نفسه عما أعطى له أو ما هو مألوف ورؤيته عبر وجهة النظر التي كأنه شئ مؤقت غريب مُنبَت وغريب حتى عن نفسه". هذا هو النمط الثانى للمنفى لذلك يتضمن الاستقلال وعدم الانحياز، وتمثل السجايا المتأصلة لكل من الالتزام والاستقلالية". بينما الناقد الثقافى الملتزم متمياً إلى العالم الذى يقطنه وأول دواعى وجوده إلا يترك هذا العالم، كما يؤمن ادوارد سعيد بهذا العالم ويجعل من البشرية جزء من تاريخه". هذا المعتقد لا يتم نيله سوى عبر ماضى صاحبه الشفيف. أو بناء عالم جديد مستند على المبادئ والعدالة الدنيوية فيما يشبه ستيفن ديداروس. ادراك ادوارد سعيد أنه يعتبر أحد منتجات البيئة الاستعمارية. مما أوجب عليه إنماء اليقظة للمقاومة ولاثبات ضرورة وجود الحرية الثقافية فى التعبير عن أية قضية عند الكتابة.



## التاريخ وما بعد الحداثة

إن منزلة المنفى تتعلق مباشرة بإمكانية التحرر المهمة اللازمة لإعادة كتابة التاريخ، فنحن الآن نقف عند أزمة تتمثل فيما يحيط بنظام التاريخ المهال بالتشوش، بينما تحليل التقاليد والتراكيب الضمنية القائم على تصورات المعرفة التاريخية تتآكل.

حقيقة ليس من الممكن أبداً إعادة استدعاء الماضي إجمالاً؛ لأن ذلك - عامة - يعتمد على التفسيرات المتعددة لهذا الماضي مما يسهم في اتهام الاستدعاء بأنه مؤقت، كما أن الحقائق التاريخية الممتدة لا تنبئ عن نفسها كثيراً. والأفكار المعرفية للفلسفة الوضعية ناقصة على الأرض لأن التاريخ صنعة أدبية وكل تلك المصادر التاريخية تناصية<sup>(1)</sup>. كما إن تدخل السياسة والنظرية (النقدية) في سياق واحد أدى إلى أن يصبح المؤرخ في موقف دفاعي أكثر فأكثر. فاقترابه من اللغة وتقاليد الحكى تؤدي إلى الالتفاف خارج موقع المُفسّر بشكل إجمالي وعلى ذلك يمكن الجدال - هنا - حول إمكانية افتقار الاستقرار أحادي المعنى وقيم الاحاديث التاريخية

١ - التناص أو تفاعل النصوص مصطلح صاغته جوليا كرسيفا للإشارة إلى العلاقات المتبادلة بين نص معين ونصوص أخرى وتشمل العلاقات التناصية إعادة الترتيب والإيماء والتلميح المتعلق بالموضوع والبنية وقد تزايدت أهمية المصطلح في النظريات البنيوية وما بعد البنيوية التي ترى أن النصوص تشير إلى نصوص أخرى أو تشير إلى نفسها كنصوص تاريخية بدلا من الإشارة إلى الواقع خارجها. للمزيد: انظر ابراهيم فتحي - معجم المصطلحات الأدبية - دار شرقيات - ط ١ - ٢٠٠٠ - ص ٨٨ . (الترجمة)



كعامل - يأخذ في الحُساب امتلاك أزمة الكفاح سعياً وراء التحرر من الاستعمار، حيث تظهر الحاجة مُلحة لتدوين التواريخ الأخرى والمعيشة التي -عندئذٍ- ستخضع كلية إلى الفحص الدقيق.

بلا شك تجلب مفاهيم ما بعد الحداثة رؤية التطوير المهم لانضباط التاريخ، وذلك عندما تتجه إلى المنظور الاستعماري الذي يمثل الحافز الاساسي لتدوين التاريخ الذي جاء بفضل ميشيل فيكو<sup>(1)</sup>، ورولان بارث<sup>(2)</sup>

---

١- ولد ميشيل فوكو عام ١٩٢٦ حصل على إجازة الفلسفة من السربون عام ١٩٤٨ عُرف عنه اهتمامه بدرس العلاقة بين الجنون والحضارة، كما تجنب الأشكال التقليدية للتحليل الماركسي أو الوظيفي أو الذرائعي ويصوغ أشكالاً جديدة من التحليل يفيد منها علم اللغة لتصل في النهاية إلى المعتقدات الأساسية الكامنة في الشفرات البنيوية للمعرفة، كما كان فوكو أول من قدم مفهوم "الكتل التاريخية للزمن" ذاهباً إلى أن هذا المفهوم يتيح له أن يدرس حقبة تاريخية سادتها معرفة بعينها على نحو يتحرك معه البحث جيئة وذهاباً في الزمان والمكان. أهم كتبه: الجنون والحضارة ١٩٦١ - نظام الأشياء ١٩٦٦ - اركيولوجيا المعرفة ١٩٦٩ - الانضباط والعقاب ١٩٧٧ - تاريخ الجنس، ١٩٧٨ للمزيد انظر: ادith كزرويل - عصر البنية - ت: جابر عصفور - ط دار سعاد الصباح ١٩٩٣ - ص ٢٩٣ - ولمعرفة فلسفة الخطاب اللغوي لدى فوكو انظر: الزواوي باغورة - مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو - المجلس الأعلى للثقافة - ٢٠٠٠ - دط. (الترجمة)

٢- ولد رولان بارث عام ١٩١٥ في اوج الحرب العالمية الأولى ومن أهم ما وسم تاريخ بارث النقدي تلك المسئلة التي كان يسائل بها كل المُسلمات ولا يقبلها على علاقتها كما جمع في درسه النقدي بين على الاجتماع والنقد الأدبي، من أهم كتبه الدرجة الصفر للكتابة ١٩٥٣ - اسطوريات ١٩٥٧ - مبادئ =

وجاك ديريدا<sup>(1)</sup>. حيث قامت مناهجهم وشككت في العلاقات بين الحقيقة وأنظمة السلطة التي تتشكل منها وتحددها. ومن ثم ظلوا يتساءلون عن العلاقة غير المحددة والمتعددة بين الدال والمدلول أو بعبارة أخرى النوعية السديمية للغة، حيث اللغة نفسها تتشكل بقدر ما تعبر عن حقيقتها المسبقة، وهكذا كل شيء لغوي/ وبناء نصي.

= السيميولوجيا ١٩٦٨ وقد ترجم تحت عنوان (درس السيميولوجيا) - لذة النص ١٩٧٧ - للمزيد انظر: مجلة بيت الحكمة لترجمة العلوم الإنسانية عدد خاص برولان بارث - العدد السابع - السنة الثانية فبراير ١٩٨٨ - وانظر ايضاً: اديث كزرويل - عصر البنية - ت: جابر عصفور - ط دار سعاد الصباح ١٩٩٣ - ص ٢٤٧

١- ولد دريدا في الجزائر في يوليو ١٩٣٠ وإذا ذكر تذكر معه التفكيكية، الفلسفة، أو بصورة أدق المنهج، الذي ابتكره وعممه في مجال الفكر والنقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة التي نعيش، واستند في هذا المنهج الى قطيعة سبق أن أعلنها نيتشه تجاه الميتافيزيقا. وتتجلى التفكيكية في أنها تقوض مفهوم الحقيقة بمعناه الميتافيزيقي كما تقوض الواقع بمعناه الوضعي التجريبي، وتحوّل سؤال الفكر الى مجالات اللغة والتأويل. ويردد بعض متابعي دريدا الى أن الأساس الوجداني الذي دفعه الى التفكيكية هو وعيه المغاير منذ طفولته كيهودي فرنسي. أشهر مؤلفات دريدا "الكتابة والاختلاف"، "الانتشار"، "هوامش الفلسفة"، "الحقيقة بالرسم"، "من أجل بول تسيلان". وعلى رغم ان منهجه التفكيكي أحال الى اللغة والتأويل، إلا أن الإحالة هذه ترمي الى نسبية الحقيقة وتحويلها الدائم، حتى لا يتحول رمز الحقيقة الى سيف يرهب مبدأ الحياة في ماديتها وفي اجتماعها البشري. للمزيد انظر: مجلة بيت الحكمة - المغرب - العدد ٤ - يناير، ١٩٨٧ وكذلك جاك ديريدا - مواقع - ترجمة فريد الزاهي - دار توبقال - المغرب - ١٩٩٢.

هذا الجدل ظهر مع هايدن وايت الذى اعتبر كل التاريخ مجرد قصة شفوية تلفق جزئياً طبقاً لحاجات ذلك التاريخ. بينما التاريخ المُقنع ينشأ من منظور الاستخدام اللغوى بجعل من المحتمل بالنسبة لنا قول تلك الحقيقة التاريخية على أنها ليست متأصلة كبنية على الأحداث. وأن ذلك التاريخ عبارة عن سرد مُشيد. لأن بناء الحقيقة -بذلك- يكون حقيقى جداً وتلك حجر الأساس الذى يمنحها منزلة عليا.

التاريخ المؤسسى (أو المروى الفعلى) مُنح قدراً من القاعدة الميثولوجية للطبيعة الخارجية و الموضوعية، والواقعية والحقيقة التى تجعل المؤرخين التقليديين يؤخذون حسب ضرورياتهم. وذلك يصبح ظاهراً أكثر فأكثر عندما تظهر الصعوبات والعوائق فى وصف الماضى أو الحاضر. حيث من المعروف أن العالم السالف (الماضى بشكل عام) أتى لنا عبر مختلف القصص التى نفسرها وتخرج عن نطاق عدم استطاعتنا للانقطاع عنها. وذلك ما ينطبق على ادوارد سعيد فالتاريخ بالنسبة له ليس هو الأساس، لكن المهم هو تدوين التاريخ. وقاله يتجسد فى ممارسة القراءة التى تتعهد بالجدال مع التشكيلة المبنية ثقافياً لنماذج المعرفة والعقائد والشفرات والتقاليد التاريخية المطروحة". ومن هنا انتج كل كتاب لادوارد سعيد وقد تكون بوساطة خطاب البعض فحسب. التاريخ إذن فن وعلم ويكون حقيقة متاحة لإعلان ما حدث فى الماضى بدون تحيز؟ لكن ما طبيعة التاريخ فى عالم ما بعد الحداثة؟ وهل يتخلى

التاريخ عن البحث في الحقيقة الموضوعية المتعلقة بالماضي؟ إذا نظرنا إلى المناهج منذ البنيوية مروراً بما بعد البنيوية وانتهاءً بالتفكيكية نجدها كلها ممارسات غرضها تقييم الماضي، عبر تقصّي الأسئلة التي ربما تقيم روابط بين التيارات الجديدة والتفكير النظري الذي أحدث جدالاً عنيفاً لتدوين التاريخ الموثوق فيه (الحقيقي) وما نتج عنه من معرفة متنازع عليها لتصوير مناقشة التاريخ. وقد حان الوقت لإقرار أن التاريخ جاء في مدد حسب شروط عملية إنتاجه نفسها.

## التاريخ والأدب

للإجابة عن الأسئلة السابقة يستطيع المرء أولاً النظر إلى قلة الاهتمام بالتاريخ كنظرية وذلك يبدو لافتاً عندما يتتقل الشخص بين رفوف كتب التاريخ نسبة إلى مثيلاتها في النظرية الأدبية. فقصر النظر فيما يخص كل من التاريخ الذي يأتي بالدرجة الأولى في طرائق المناهج، وبالواقعية الساذجة التي تجعل منها قاعدة لنفسها. إن النص المطروح على النظرية غالباً ما يُتجاهل من قبل المؤرخين الارثوذكسين أو من لا يؤمنون بجدية الانتباه إلى النظرية النقدية في توجيه العمل نحو الأدب.

لابد أن ذلك يعد اعترافاً لأن القص يستعار في الحكى الشفاهى والشهادات المكتوبة والقصص التاريخية ومن ثم يؤول ذلك إلى الأدب والبلاغة. والمدلولات تمثل تأثيراً على المقاصد والأغراض السردية، وعلى الأصح تصبح بديلاً عن استنتاج الحقائق. فمن الواضح أن القصص التاريخية لها مشتركات أكثر بكثير - بشكل علنى - من القصص الخيالى بما يرغب المؤرخون عادة في إجازته". فالحد التأسيسى بين التاريخ والأدب يمكن أن يلتزم برؤية أن الخطاب التاريخى الذى يُعدّ موضوعاً فى نفس نوع التحليل النقدى، بخلاف أى نوع من الخطابات الأخرى، ولا نغامر عندما نقول أن تلك الحقيقة بيّنة بواسطة النص سواء كان أدبياً أم تاريخياً منذ ما قبل أن تصبح الكتابة جلية وحقيقية و شفيفة.

فى هذا السياق يمكن للمرء أن يستند على رؤية هايدن وايت التي تقر أن عدد من أساتذة الأدب -فى أغلب الأحيان- قدم دراسة السياق التاريخى للعمل الأدبى كنموذج للتصوير الواقع للأحداث. بالرغم من أن هذا السياق التاريخى ملموساً ومنفتحاً على العمل الأدبى ولا يمكنه القيام بغير ذلك". إن فرضية الموضوعية وانفتاح الأجواء التاريخية يجعلهم يتناسون أن سياقات النصوص ذاتها تجعل منظرو الأدب يدرسون نتاجات القدرات الخيالية للمؤرخين الذين سبق أن درسوا تلك السياقات، وتلك نقيصة للمنظرين أمثال هايدن وايت لأن التاريخ يجب أن يتفاوت بين الإبداع الجمالى الأدبى والبلاغى والتاريخ، لذلك يجب أن يقوموا بكشف واسع الاطلاع على الأدب بما لا يدع مجالاً للشك فى تأكيد أنه ليس هناك من فرق بين الفلسفة والأدب. ويتضح أن الإبداع المتخيل من الماضى -الذى اختلقه مبدع قديم- يجنح بصورة حسنة إلى تجاوز قيود الوثائق أو الحقائق. عندئذ يتداعى أى مترمت لأخذ الأسباب لتبعية الأدب خاصة تأطيره المؤسسى فى القرن التاسع عشر الذى يدعى فى الزمن الحاضر بالتضافر بين اللغات القومية والعهود التاريخية بعكس تلك التبعية والارتباط الذى حدث إثر انهيار الفلسفات التاريخية بعد نكبة ١٨٤٨ حيث أثار تنشيط القرن الثامن عشر محاولات لتقسيم مجال المعرفة فى المناطق المخططة بشكل واضح خاضعة لمعايير مختلفة من الإصلاح. ومن الآن فصاعداً يستطيع الأدب -بشكل مدروس- أن يرتبط بعلم الجمال بينما يتجلى تميزه عن التاريخ الاجتماعى.

لكن مع الجدل المعاصر حول مراوغة اللغة بتراكيبها العميقة يبدأ المؤرخ فى الحصول على قاعدة معرفية للدراسة، والناقد الأدبى متقلب جدا فيما يتعلق بفكرة دور التاريخ كمؤسسة راسخة لخيال العالم الأدبى. بينما -حسب ما يُعرف- تنتج سلطة الدلالة على محاولة تباين اللغة لإنتاج خطاب علمى. وذلك من نتاج مدرسة التفكيكية الفرنسية إلى جانب مدرسة التحليل الانجلوأمريكى<sup>(1)</sup> التي تؤكد على النصية وليس مرجعية النص حسب تحديد المدلول أو المعنى التاريخى مما أنتج مدرسة فكرية شائعة.

فرضت تلك المدرسة التاريخ كحكاية بالرغم من استخدامه للهوامش والاقتباسات والتزامن وتوقف ذلك على مؤسسات الشريعة -بدعم الوثائق- وكله فى النهاية محدد باللغة، وذلك بكل تأكيد يمثل تطورا مهماً فى فلسفة التاريخ كى تسعى لخطاب أدبى ذى امتياز استناداً إلى فضيلة انعكاس الخطاب على ذاته (أو انعكاس الخطاب الذاتى) وملاحظة أن الحقيقة الوحيدة المدركة هى القصة والإنكار لثبات تفسير (أو الترجمة الشفوية) التاريخ وسيادة أى قانون، هكذا يؤكد فى مواقف ما بعد الحداثة.

يمكن للفرد أن يتناقش فى انه لا حقيقة فى كتابة التاريخ التي لها شكل قريب من المتعة والايديولوجيا الخاصة بالمؤرخ مثل تلك المغامرة تصبح ضد الفلسفة الوضعية وينزع إلى الشك العميق فى الحقائق المطلقة.

١ - للمزيد عن النقد الأنجلوأمريكى انظر: مختارات من النقد الانجلوأمريكى - ترجمة: ماهر شفيق فريد - المشروع القومى للترجمة - رقم ١٩٤ - ط ١ - ٢٠٠٠ .



## علاقة إدوارد سعيد بالتاريخ

المنظرات أو الجدالات التي يمكن أن تطرح في علاقة إدوارد سعيد بالتاريخ تتعلق بالموضوعية أو الذاتية أو التعدد أو النسبية أو عالمية الحقيقة. يسود ذلك في تطوير كتابة وتدوين التاريخ عبر فعل المستشرق الذي يصحح مناطق المعرفة والثقافة والأعراف حسب موقع النزاع أو التناقض فيها، فالهدف الرئيسى هو الحرية فى جوهرها، على ما يبدو مرد ذلك إلى علماء الانثربولوجيا الغربيين والاثنوجرافيا (علم المجتمعات البدائية ووصف الثقافات) التي تعتزم اتباع ظاهرة تقليدية لتلك الثقافة التي تكون مجال التعبير الاجتماعى المتميز، إنه التاريخ والكتابة حوله التي تمنح سبباً لنهوض التبادلات الجديدة بين قوائم المؤسسة وما بعد قوائم المؤسسة والحدثة وما بعد الحدثة، ثم تجاوز هذا الجدل (أو وراء هذا النقاش) يمارس إدوارد سعيد الكفاح من أجل إعادة صياغة الهويات المختلفة ونظام لحكم المترعزع (أو سياسة الحكومات غير المستقرة).

ساهمت كتابات إدوارد سعيد بشكل ملموس فى إعادة تشكيل كتابة التاريخ والجدال النظرى حوله خلال العقدين الأخيرين. من قبل كان نيل الحقيقة التاريخية يأتى عبر المكان / الموقع / والسياسية فحسب. لكنه ارتفع عن النظم التاريخية إلى الكتابة الملتزمة عن الوقائع التاريخية خاصة الاحتلال. ولا يتخلى إدوارد سعيد تماماً عن قانون الطريقة التجريبية فى الكتابة والسلوك المفرغ من الثقافة،



لكن قيادته للحقائق وتأكيدَه على الايقونات والاشارات والرموز واللغة يساعد على تزويد المؤرخ الاجتماعى والأدبى برؤية أوسع للتاريخ. مع ذلك من غير الجائز القول أن كل حسابات الماضى باطلة (أو زائفة) فقد خرج ادوارد سعيد بالدلالة على الكتابات المختلفة للعلماء الأوروبيين التي تشكلت بالضرورة الايديولوجية والسياسية لتشييد الامبراطورية بواسطة الاستعلاء العرقى والثقافى المتأصل فى الخطط المدروسة عبر أهدافهم السياسية.

## منهجية إدوارد سعيد

تنطوي مجالات تدوين التاريخ والتصوير الحيوى لكتابات ادوارد سعيد على مشكلات طبيعية فى المجالات النصية وفهمنا للماضى تعمق إلى حد هائل بواسطة تحليل سعيد للأدب والثقافة التي تجنح إلى التضيؤ على طبقات مختلفة من الناس وفئات عريضة من التجارب والخبرات التي لا ندركها نحن.

وعلى ذلك تجنح العروض البديهية لنظم سعيد المعرفية إلى نزع منظورنا المنحاز الذى يتشكل لدينا عبر الاحتكاك بالأدب والتاريخ الغربى. وغايته النهائية أن يؤكد على فاعلية الشخصية السياسية فى كل مسعى أدبى. لذلك رسم عبر تعاليمه الممتدة خبرة لكشف العلاقة المركبة بين الأدب والتاريخ فى كتابيه "الاستشراق" (١) و "الثقافة والامبريالية" (٢) حيث ركز سعيد انتباهه عبر الكتابة التاريخية نفسها. عارضاً كيفية ربط القصص الأدبية والسياسية قسراً وحصرها فى نصوص جين اوستن "روضة مانسفيلد"، وجوزيف كونراد "قلب الظلام" وفيردى "اوبرا عايدة" كما قرر فى "الثقافة والامبريالية": "أظن أن دراسة العلاقة بين الغرب والهيمنة الثقافية على الآخرين ليست الطريق الوحيد لفهم العلاقة غير المتكافئة بين المخاطبين غير المتساوية، لكن

١- ادوارد سعيد-الاستشراق-المعرفة-السلطة-الإنشاء-ت: كمال ابو ديب- مؤسسة الأبحاث العربية-ط١-١٩٨١.

٢- الثقافة والامبريالية - ترجمة كمال ابو ديب- دار الآداب - ١٩٩٨.

أيضا هناك الاتجاه إلى الدخول في دراسة التشكيل ومعنى الممارسات الثقافية لدى الغربيين أنفسهم، واختلاف المقاومة في القدرة على التفرقة بين الغربي وغير الغربي الذي يجب أن يؤخذ في الحسبان وذلك إذا أمعنا النظر في فهم الأشكال الثقافية مثل الرواية خاصة على الصعيد الاثنوجرافى<sup>(1)</sup> والخطاب التاريخي. وبعض أنواع الشعر والأوبرا حيث تلمح وتنظم قاعدة الأسس الدالة على هذا التباين السائد". من ناحية أخرى، كتابات ما بعد الاستشراق التاريخي تعدّ محاولات لتبسيط هذا المشروع المضلل الذي يخفى "بنية ايديولوجية" وراء الواجهة العلمية للهوامش وإدراج حقائق مزعومة". لكن -على حد سواء- هناك نشاط ملموس لأن كل هذه التصورات أعلنت باسم الـ "أصلي" والصحيح وقيمة ذلك تحتاج للمُساءلة أيضاً. وسلطتهم ومفهومهم يحتاج إلى إعادة فحص بعناية حسب كتابات سعيد نفسه: "القصص تدمغ الفؤاد عندما تُميط اللثام عن قول المستكشفين والروائيين حول المناطق الغربية في العالم. أيضاً تتجسد الطريقة التي استعمرت بها الشعوب في تأكيد هويتهم ووجودهم حسب تاريخهم نفسه".

---

١ - اثنوجرافى تعنى وصف الأعراف أو الأجناس البشرية بغرض التعرف على خصائصها وتطوراتها وتشعباتها والتعرف على جوانب التشابه والاختلاف فيما بينها عبر خصائص كل شعب ومميزاته الثقافية والحضارية والعرقية. (المترجمة).

هذا المشهد ثنائى البؤرة الذى يمكن أن تجسده اية كتابة ويُستحضر ربما فى لعبة الإبداع التى تمزج الحقيقة بالقص . وتلمح إلى الامكانيات المطلقة والالانهائية للكتابة . تصوير الحقيقة من أى جانب لا يمكن أن يكون ذا فاعلية محايدة ايديولوجياً . وقد أدرك ادوارد سعيد مشكلة تصوير تلك الأشياء فى التاريخ المعاصر وسياقات وجودها مدركاً تماماً كيف يزيفون ويسخرون ويحطون من شان الآخرين .

أصبح عمل ادوارد سعيد جزءاً من هيكل أكبر من التحليل النظرى الذى يوضح فهم الايديولوجيا وراء كتابة التاريخ واستخدام النقد الملموس فى القبض على نمط الإنتاج الأدبى . ممارساً سطوة كبيرة مؤثرة فى توجيه الدراسات الأدبية فى الجامعات حول العالم . كما ساعد ادوارد سعيد على الالتفاف حول " القراءة ضد رغبة المرء " فى أساليب نقدية تعضد ذلك فى مستوى واحد يزاوج بين الايديولوجيا وما بعد الحداثة .

وفى آن آخر ينبه الباحث الأدبى كى يلقي نظرة شكّاقة على الهفوات الواقعة فى الكتابات شديدة الاهتمام بتكريس الهيمنة الغربية ، وهناك اهتمام متأصل داخل ادوارد سعيد لاستبقاء الظواهر الايديولوجية فى مقدمة التحليل الجدلى مع تأكيده على وجود موقف عالمى جانح ومنحاز يرفض وجهات النظر الكلية والتصنيفات الأكاديمية التى تفتّ من عضد حقيقة التواجد التاريخى للهامش .

يمكن للمرء أن يلتمس انحياز سعيد وتحرره من العُرف الثقافي  
 الإنسانى وقد تشربته من ايريك اورباخ وترلنج لنوال خاصة عبر  
 النظرية الأدبية المعاصرة. وفقد فاعلية ما بعد حركة التنوير تماماً فى  
 الأصول والمركز وفى النهاية. المعنى الضمنى هنا يتمثل فى فكرة  
 العلاقة غير المتكافئة اقتصادياً والسلطة السياسية التي تعمل خلف  
 اساطير الصورة التي تجسد واقع الشرق والتي تستكمل مع الحديث  
 الأوروبى والحضارة المادية الملموسة بدون تحليل للخطاب وهكذا لا  
 يحتمل المرء فهم النظام العالمى المتراعى للثقافة الأوروبية على  
 الإدارة وتسيير المنتج للشرق السياسى بشكل اجتماعى، عسكرياً  
 وفكرياً وعلمياً وبشكل خلاق أثناء فترة ما بعد التنوير. لكن اولاً  
 ينبغى ذكر المؤثرات.



القسم

الثاني

2

## الخطاب والمعرفة

### سلطة ميشيل فوكو

أحد أروع الأمثلة للاستخدام الكبير للنظرية الحديثة المؤدية إلى انضباط التاريخ الثقافي والتي يمكن أن تُلمح في كتابات ادوارد سعيد منهجه الذي ترسخ عبر الاندماج في الماركسية التقليدية القديمة مع تيار الممارسة النقدية في تحليل الخطاب لفهم العلاقة بين الامبريالية والثقافة، أدى به ذلك إلى مناقشة الحسابات الحقيقية للتاريخ لأنها الوحيدة التي تقدم نتائج للاستراتيجيات الثقافية والتي وجهت إلى استبقاء المكسب السلطوي (أوالتفوذ) والمادة في إلقاء وجهة النظر محددة على الثقافة والتواريخ ومن هنا يتضح تأثير ادوارد سعيد العميق برفض ايديولوجيا الهيمنة ووضع الضرورات



السياسية للمجتمع موضع التساؤل، في ذلك يعتمد سعيد خاصة على ميشيل فوكو، وانطونيو جرامشي<sup>(1)</sup> ونعوم تشومسكى.

جرأة تشومسكى النقدية علّمته شجاعة الخوض في موضوعات خاصة بالقضايا الكبرى المؤثرة فينا. ويتضح ذلك - أكثر- في النشاط السياسى السياسى الطائفى of a community لكن المفارقة أنه بينما اهتم تشومسكى أكثر بالكتابة فى الشؤون السياسية مباشرة، أنصبّ اهتمام (حركة) ادوارد سعيد نحو التنظير لما يهتم به (يشغله) ويخصه عالمه. فيما يتعلق بذلك -إذا اخذ بعين الاعتبار - صار هو الأقرب لفوكو عن تشومسكى، بالرغم من نقد تشومسكى الذى يلقى بظلاله السياسية على فوكو من حيث تدخّله السياسى مباشرة.

١- مذكرات كرامات السجن-المستقبل العربى-١٩٩٤.

الاستشراق نفسه مديناً بدرجة كُبرى إلى رؤية فوكو لعلاقة الارتباط بين السلطة والمعرفة. إذ ظهر ولاء ادوارد سعيد لفوكو في المقدمة التي كتبها عن الاستقرار، السلطة، وقدرة تنظيم المعرفة. " حسب فكرة تعزيز كل مؤسسات الحكم. يُرى هذا بوضوح في عملية المؤسسات التأديبية (الانضباطية) حسب البيروقراطية أو الحكومة الأزلية التي تشغل دائماً باستراتيجيات التغلب على الواقع واستمرار وجودها بفرض القوة/ السيطرة وكسب الوجود بواسطة هدف واحد هو الهيمنة.

نموذج فوكو في السلطة والمعرفة اشتق من فلسفة "نيتزشن" بشكل واضح جداً، تلك المعرفة استخدمت من قبل وكالات تسييس السلطة التي تقع تحت تصرفهم والتي أسست قوامات اللغة خلال كل الأشكال التي فرضتها على المجتمع. ما الحقيقة التي لا جدال فيها لهذه الأقلية الجبارة ؟ إنها أفواج وتنظيمات وضوابط للموضوع بشكل منظم للدعوة إلى الأهداف بعمل الهيمنة عبر الخطاب.

يعتقد فوكو أنه يمكن لمجموعة من الناس أن تمتلك أزمة السلطة لخلق وجهة نظر عالمية (أو إعادة صياغة العالم) إذا تسلّحوا بالمعرفة، ويقول إن التدريب على السلطة يبتكر نفسه، ويتسبب ذلك في ظهور موضوعات جديدة للمعرفة التي تتراكم معا مكونة هيكل جديد من المعلومات. " بعبارة أخرى " كل من السلطة والمعرفة يتضافر مع الآخر ". سيادة السلطة والهيمنة في الوقت

نفسه يهدفان إلى المعرفة. هكذا المعرفة تُنشئ القوة التي تباعا لا يمكن أن تمارس بدون المعرفة. يتولّد مثل ذلك الاستعمال للقوة والمعرفة خطاب الذى يخلق العقائد (أو المذاهب) التي تعرف جميعاً بالـ (طبيعى) وعادى! هذه الفكرة عندما طبّقت (أو قدّمت للمؤسسات) والرؤى أظهرت كيف أنهم يعملون فى تناغم من أجل ضبط السلوك الفعل عبر استراتيجيات الهيمنة.

خلف تلك المؤسسات تكمن الفكرة وبإستثناء استبعاد الهدف الرئيسى لتشريع الوضع العالمى الراهن أو بدأ مشاريع جديدة بهدف الاستبعاد أو الهيمنة. هذا يصنع بحد كاف ويوضح من قبل فوكو فى فكرة الانضباط والعقاب كيف يحافظ على ذلك ويستبقه؟.

لا علاقة للسلطة (الهيمنة) بدون دستور مترابط ومتبادل مع مجال وحقل المعرفة، ولا أية معرفة يمكنها أن تفرض (أو تقدم) أو تُشكّل فى الوقت نفسه مع علاقات السلطة الهيمنة. لابد أن تحفظ من الذاكرة -بشكل رئيسى- أن هناك مفهوميّن رئيسيين للسلطة (الهيمنة)، وقد سيطرا على خطاب الدراسات الحديثة: السلطة كقدرة كُلية بسيطة التصرف. والسلطة حسب الارتكان على القبول بالواقع، ولذلك تستخدم الحق فى الفعل. كل من هذين المفهومين مهم لمزيد من الفهم الشامل لمستويات بنية الخطاب كافة.

بعد حديثنا عن السلطة والمعرفة، دعنى أفسر ماذا يعنى فوكو بـ "الخطاب"؟ عندما يتكلم اللغوى عن الخطاب الإعلانى، سيعنى

ببساطة المعالجة الرسمية - ببساطة - للموضوع في الحديث أو الكتابة.

لكن إذا وقع ذلك الأمر تحت سيطرة فيلسوف أو عالم نفساني اجتماعي عند الحديث عن التميز العنصري، فالقول سيكون فيه معنى ضمني مختلف تماماً عن البساطة في الحديث اللفظي (أو عن فعل الكلام والاتصال اللفظي/ الشفوي) على الرغم من أن الخطاب لا يمكن أن يقبض بشدة على خلفيات معنى واحد (أو على ما وراء المعنى) ويمكن للمرء أن يخطو لما وراء تضمين وتعبير اللغويين عن التعبيرات الاصطلاحية البراقة جداً الآن. وذلك ما يمكن أن يكون في لحظة ما تاريخ الأمة. سيكون دائماً هناك خطاب خاص بمجموعة القواعد والاعراف التي تسيطر على (أو تتحكم في) عمل المجتمع. إن موضوعة الخطاب تكون دائماً تحت السيطرة وتتنظم بضوابط المؤسسات التي لها فاعلية الوكالات (أو وسائط توزيع شفرات القيادة (أو أنظمة الإدارة) فضلاً عن الإجراءات الاجتماعية الأخرى.

تلك الأفكار المهيمنة في الخطاب مسؤولة عن الرقابة الصارمة التي مورست في المجتمع، تقريرياً في طبيعة (رقابة السجن السلطوي الدائر بواسطة مراقب أو حاكم فرد في المركز). ذلك المسؤول عن المراقبة (أو الإشراف) الاجتماعية طبقاً لقواعد الصفوة (النخب). حسب كتابات فوكو بدلا من التقليل التدريجي لتلك الهيمنة القائمة من الحاكم، وعلى الأرجح يؤدي ذلك إلى تذبذب

المعنى لكلمة "خطاب" وأعتقد أنني لدى إضافة في الحقيقة لمعانيها: حيث معالجتها أحياناً حسب ميدان المعرفة في كل التصريحات السلطوية أحياناً فيما يخصص لمجموعة من البيانات وأحياناً لممارسة منظمة التي تحسب لعدد من تلك التصريحات.

أولا يأخذ فوكو الحديث حسب تداول الكلام (أو التعبير) عامة الذي له بعض التأثير في المجتمع، ثم بعد ذلك الانتقال بالنظر إلى مجموعة محددة من التعبيرات التي تمتلك -معاً- مفهوم واضح -تماسك سوياً- يعبر عن قوة التحكم (والسيطرة) هكذا يمكن أن يكون خطاب الاستشراق عند ادوارد سعيد يستخدم خطة فوكو لجمع الهياكل المتنوعة من النصوص من السياسة والأدب وعلم اللغة والاثنوجرافيا<sup>(1)</sup> والتاريخ لخلق خطاب غير منقسم عن الاستشراق مثل فوكو. ادوارد سعيد لا يتوقف عند ذلك، بل يستمر في النظر إلى التراكيب التي تكمن خلف إنتاج النصوص أو التعابير الأكثر حيوية المؤدية إلى استراتيجيات المعرفة والقوة والتي تصوب بسيطرة على إبداع الشرق. ففوكو ومن قبله ميخائيل باختين كرسا كل الاهتمام إلى مركز الايديولوجيا لتجسيد للمذاهب والقيم والفصول التي تشكل طريقاً للرواية إلى العالم. كذلك لوى التوسير<sup>(2)</sup> عبر استخدام الايديولوجيا وأدوات

١- وصف الأعراق البشرية.

٢- من أهم المصطلحات التي قام بمناقشتها لوى التوسير في كتابه المهم "من أجل ماركس" ١٩٦٥ مصطلح الاغتراب alienation الذي يعنى حالة نفسية =

ايدولوجية يؤكد -أيضاً- أن الايدولوجيا تكمن خلف الوعي بأنظمة المعنى الذى ينصب على شخص فى العلاقات المُتخيلة فى حقيقة العلاقات الواقعية بين الناس أينما يعيشون. تمنح العلاقة بين الايدولوجيا والخطاب<sup>(1)</sup> اتجاه عام ذا مغزى لفهمنا للمشروع الثقافى لادوارد سعيد على صعيد الايدولوجيا أكثر من التعبير السياسى بشكل علنى يدل ضمناً على "البساطة والعملية / التقدم السلبى الرافض للنقيض وفقاً لذلك الأشخاص الذين انخدعوا فى استخدام الانظمة التصورية التى لم تكن فى مصالحهم (أو موضع اهتمامهم). من ناحية أخرى، الخطاب مدين لانفصاله المعلن من الانتماءات السياسية التى ربما تتسبب بشكل ما إلى فكرة الهيمنة لدى انطونيو جرامشى<sup>(2)</sup> التى يتواطأ فيها الناس مع مرءوسيهـم.

= اجتماعية تسيطر على الفرد فتجعله غريباً وبعيداً عن واقعه الاجتماعى وينطوى المصطلح على مفاهيم متعددة بتعدد الفلاسفة الذين الحوا على استخدامه، خصوصاً هيجل وفرويد وماركس الذى ربط الاغتراب بتقسيم العمل والتوزيع غير المتكافئ للسلطة والأرباح. انظر عن سيرة التوسير. اديث كزرويل - عصر البنيوية - ت: جابر عصفور - صص ٦٣-٩٣ .

١- يشير مصطلح الخطاب إلى الطريقة التى تشكّل بها الجمل نظاماً متتابعاً تُسهم به فى نسق كُلى ومتحد الخواص، وعلى نحو يمكن معه أن تتألف الجمل فى خطاب بعينه لتُشكّل نصاً مفرداً أو تتألف النصوص نفسها فى نظام متتابع لتُشكّل خطاباً أوسع ينطوى على أكثر من نص مفرد. انظر المرجع السابق ص ٣٧٩ .

٢- ميّز جرامشى بين نوعين من الهيمنة الاولى الخاصة بالمجتمع المدنى والفصل بين السلطات وهو نتاج للصراع بين المجتمع المدنى والمجتمع السياسى فى فترة =

## تأثير فوكو

بشكل واضح تتعلق السلطة بالمفاهيم الايديولوجية<sup>(1)</sup> والخطاب، بتلفظ أكثر توهجاً بواسطة فوكو الذى قدّم وجهات نظره عن العلاقة بين الحكّام والمحكومين التي أوحّت لقدر من الأدباء والنقاد الاجتماعيين للتطلع للإجابة عن الأسئلة "من يستطيع أن يتسبب فى عمل ماذا؟".

على الأصح -بالنسبة للمستوى الأكاديمي فحسب- تظهر نتائج بحثه المهمة إلى حد كبير جداً عند وضع ادوارد سعيد لأفكاره السياسية الفعّالة كى يُعلّى من الوعي السياسى -على الأقل- لدى أولئك الذين آمنوا -بصدق- بفكرة الديمقراطية.

---

= تاريخية محددة وتتميز هذه الفتر بنوع من التوازن غير المستقر بين الطبقات وهو نتاج لواقع أن بعض فئات المثقفين (الذين فى خدمة الدولة مباشرة، وخاصة البيروقراطية المدنية والعسكرية) لا يزال يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالطبقات المسيطرة القديمة-انظر انطونيو جرامشى-كراسات السجن ت: عادل غنيم-المستقبل العربى-ط ١-١٩٩٤-ص ٢٥٨، وهيمنة الثقافات الغربية على الثقافات العالمية التى تتمثل بقدر ما كانت عناصر مكونة للثقافة الأوروبية وهى الثقافة العالمية الوحيدة تاريخياً وواقعياً ؛ أى بقدر اسهامها فى عملية الفكر الأوروبى وتمثله لها. نفسه ص ٤٣١ .

١- Ideology ايديولوجيا نسق من الآراء والأفكار التى هى جزء من البناء الفوقى، والتى تعكس -بوسائط وعقدة- العلاقات الاقتصادية فى مجتمع من المجتمعات وتؤكدّها فى الوقت نفسه مما يجعل منها نوعاً من الوعي الزائف يؤكد علاقات انتاجية. انظر: عصر البنيوية ص ٣٨٩ .



وجهة سعيد اهتمامه كاملاً إلى فكرة فوكو حول الخطاب الذي يحاكي الحقيقة بشكل مثالي وقاطع بجدية "مجالات الموضوعات المترهلة أو الطقوس التي تبدو في الظاهر حقيقية". كما سنرى أن الشرق يتحول في استطراد إلى "شرق" بواسطة هيمنة الغرب في كل تواريخ الامبراطورية. لادوارد سعيد معارضاته لفلسفة فوكو. على أية حال فيما يتصل برؤيته و بأنه ليس هناك عمل قوى وواعى وراء السلطة. عامة فكرة فوكو تحرم الوقائع القمعية، وترفض النظر إلى فكرة السلطة حسب ادراك (أو تصور) قوة الهيمنة التي دائماً تسلطه، منحدره من مؤسسة أو الولاية لتستقر في الواقع الأعلى. يؤكد ذلك عنصر غير شخصى فى عملية السلطة التي تحمل لها هدفاً لتصميم الموضوعات الحقيقية وصياغة وتواريخها. بالنسبة لادوارد سعيد الأمر ليس كذلك، لأنه بدلاً من أن يحافظ على الخطة الواعية والمقصود من وراء الهيمنة الغربية على الشرق بواسطة الحكومات، ورؤية أن المؤلفين / الأفراد ليسوا ببساطة الوكلاء (أو العملاء) السلبيين لمثل هذه الاستراتيجيات.

إضافة إلى ذلك، بينما يهتم فوكو بتبنى تقديم نظرية الهيمنة "النزاع" أو المقاومة، فى مظهر (أو واجهة) القوى الاجتماعية فقد غاب عن تفكيره النضال من أجل التطور المنتج لنظام الخطاب. على الرغم من اهتمام فوكو قليلاً بنجاح الممارسات القمعية بقدر ما تضطرب استراتيجية المقاومة طالما أن استراتيجية المقاومة تتعلق بها.



يدرك سعيد أهمية انطونيو جرامشي ورايموند وليامز. ويجادل بأنه من الخطأ القول بمعارضة دعوة هذه الممارسات المعارضة بدون نظرة شمولية لأن كتابات فانون، سيدالاتاس، عبد الله العروى، بانيكار، شارياتي، والروائيون امثال نجوى واثيرونجو<sup>(١)</sup>. وسلمان رشدى بالإضافة إلى كل الكتابات التي تمثل ثقافات الأقلية ولها قوة راسخة هدامة للاحتجاج والعتالي النصي للصيحة العالية الملازمة للسلطة، لذلك فإنها لا تقهر أحادية الاتجاه الموجه نحو السلطة. اقتبس ادوارد سعيد من وليامز لتعزيز تعارضه مع فوكو وتوافقه مع جرامشي "من ناحية أخرى -مهما يكن- ربما تكون الهيمنة نظام اجتماعي، بل المعنى ذاته يتضمن الهيمنة تحديداً أو انتخاب النشاطات التي تغطيه. لذلك من قبل التوضيح فإنه يعجز عن استنفاد درس كل التجربة الاجتماعية للهيمنة، عامة من أجل ذلك يضمن دائماً فضاء كامن للأفعال البديلة والنوايا الخيارية التي تعجز عن اتاحتها المؤسسة الاجتماعية أو حتى السلطة".

لمزيد من التأسيس النظري لمناظراته يستخدم ادوارد سعيد تأريخ فوكو للجنس والنظام والعقاب. لكنه على حد سواء معتمد على جرامشي في استخدامه الإبداعى للهيمنة على الرغم من أنه يُكَيّف المصطلح (أو التعبير) ليتناسب مع اطروحته المتاحة.

١- اشتهر نجوى واثيرونجو بروايته "لا تيك يا بنى" التي صدرت عام ١٩٦٤ وكانت من أولى الروايات التي جعلت العالم الأدبي يدرك أن كُتّاب افريقيا كانوا يقدمون اسهاماً جديداً أصيلاً فى الأدب العالمى ثم تلتها روايته "النهر" و "حبة القمح". انظر: نجوى واثيرونجو-تويجات الدم-ت: سعدى يوسف- دار ابن رشد-بيروت-ط١-١٩٨٣-ص٥٢٥.

## ادوارد سعيد وجرامشى

تشبه فكرة جرامشى عن الهيمنة التلقائين الذين يُقبلون من الجماهير (الطبقات الدنيا من المجتمع) لحماية السُلطة بواسطة طبقة الأقلية خلال استخدام الأقنعة والتعاون معها، هذه الموافقة سببها الهالة الكبيرة وهيبة مجموعة المهيمنين الأساسيين (أو قاعدة الهيمنة البشرية الأساسية) التي تتعامل بـسوخها وثباتها الاجتماعى والاستراتيجيات السياسية للمحافظة على قبول الطبقة الاجتماعية الشعبية التي -من ناحية أخرى- يجب أن تجمع على الثورة رداً على مثل هذه الهيمنة. الهيمنة تدل ضمناً على كل من السيطرة عبر الموافقة بالإضافة إلى إدراك الحالات الثورية للخراب (الدمار) الذى يواجه دائماً حاضراً فى السيطرة الاجتماعية. هيمنة جرامشى عبر ما هو غير ملحوظ.

التي تفل عن استخدام الاقناع بشكل غير واع يلفت عامة الجماهير. لإنجاز ذلك يتم فرض اللغة وخلالها تتم كتابة الأدب والتاريخ للعب دور مهم فى إرساء النظم والمؤسسات التي تحفظ (تُخلد) وتدعم ايدولوجيا الطبقة المسيطرة.

الأدب البريطانى والتاريخ -على سبيل المثال- بالإضافة إلى اللغة الإنجليزية -لهما وظيفة نشر الأفكار التي تُسهّم فى سيطرة الهيمنة لطبقة واحدة (بعينها) بواسطة الآخر.

تطورت أفكار جرامشى -ضمن سياق النص، لموقعه كأحد

القادة والزعماء الرئيسيين للحركة العاملة الإيطالية . وقد تشكلت جميعها وظهرت فى سياق سجنه الطويل تحت سطوة الفاشية . أدى ذلك إلى إعادة النظر -ثقافياً- وكذلك القدرات الأدبية والفنية . اعتمد ادوارد سعيد على عمل جرامشى الرئيسى " اختيارات من دفتر ملاحظات السجن " (1) . حيث مشروعته القائم على استنهاض فكرة الاستشراق والدفاع عن مركزية الثقافة الديمقراطية لفهم ذلك المشروع الذى يجابه الامبريالية والأزمان الفاشية .

أفضل أعمال الهيمنة تتجسد فى خلق التشويش على الافكار المتعارضة فى عقول الجماهير عندما يتشربون القيم الثقافية ومعتقدات (أو مذاهب) الطبقة المسيطرة ويلزم ذلك عمل تلازم قبول التباين (أو عدم مساواة الطبقة الاجتماعية) والقمع وكأنه طبيعى وغير قابل للتغيير .

تلك هى فكرة جرامشى المعلنه التى مكنت الغرب من خلق أساطير القوة والهيمنة تماماً وهو المصطلح السلبى فى قاموس جرامشى الذى يصبح فى موقع البناء الايديولوجى القار حقيقة فى الواقع .

صيحات جرامشى للنقد جسدت ذلك التلقين للحس العام الذى يعتبر بالنسبة لسعيد مهمة الناقد المختص الذى يستكشف

١- ترجم تحت عنوان " كراسات السجن " انظر: انطونيو جرامشى-كراسات السجن ت: عادل غنيم- المستقبل العربى-ط١-١٩٩٤

طبيعة المقاومة الايديولوجية لفكرة الهيمنة فى الواقع .

الافتراضات التي استقاها ادوارد سعيد من جرامشى مكنته من إضافة بُعداً قياسياً إلى الدراسة لكل من حسابات التاريخ الاستعماري والمقاومة الثقافية، مما أهله فى النهاية لفهم نظرية السلطة السياسية بينما يمنح الأولوية للعمليات الثورية عند صناعة التاريخ . هكذا برفض مشهد التاريخ فى نقد التغير الثقافى فى فترات الاستعمار وفكرة القصة المطولة الواحدة أو المفردة فى أى مسار (أو منحى) تاريخى .

حسب أساطير النفوذ تلك الناقد الملتزم والقيادة الايديولوجية لا بد أن يتفهما عبر مخطط جرامشى المقارن بين الهيمنة والسيطرة . حيث أراد فكرة الهيمنة حسب سير الاستراتيجية إلى الهيمنة كمفهوم (كتصور) وأداة لفهم المجتمع إيذاناً بتغييره . الهيمنة لها مستويان "شعبى وقومى" قياساً على مستوى الطبقة الموجهة إليها مما يتطلب توحيد أشكال (وتعدد عناصر) القوى الاجتماعية المختلفة فى تحالف واسع ومتراعى وشامل يظهر الإرادة الجماعية الشعبية الوطنية .

من وجهة نظر الخطاب الاستعماري الذى عرض نفسه على انه عملية إعادة تنظيم أشمل الذى يحتاج إليه لتأسيس الهيمنة الغربية . إنه طريق لتحويل سُبُل التفكير الشعبى وشعوره ومفاهيم الناس أنفسهم (الشعب نفسه) حسب المعايير الأخلاقية و التاريخية

التي يفرضها ذلك الخطاب. وتحول الوعي الشعبى عامة مداره حول خدمة و مساعد الهيمنة الغربية بغرض تثبيت القاعدة وقوانين الحكم والسيطرة الأجنبية.

اهتمامات سعيد النظرية تتفق مع الموقف الايديولوجى و الاتجاه الجمالى الماركسى فى سياق النص. حيث يرى ادوارد سعيد النصوص الأدبية والقيم التاريخية للغرب مثل صور ثمينة متاحة للسُّبل التي تعمل فيها الهيمنة. يستعمل دوارد سعيد تحليله التفكيكى للنصوص الاوروبية المختلفة مثل نموذج لدفع و تفسير الزمن الذى يجعل من الممكن فهم السلوكيات التي استعملت للقمع وتصوير ذلك عبر إعادة إنتاج الأدب أو الموسيقى. هكذا تصبح الأفكار حيزاً لعلاقات الهيمنة والمعرفة التي تعمل فى تتابع وتراتب على حماية السلطة.

استخدم سعيد أفكار جرامشى لتأكيد الحاجة إلى المثقفين الذين يتصدون بقوة للممارسات الاستبدادية، ويكونون -أيضاً- مدركون لاستراتيجيات القمعية للاسطير الغربية المهيمنة.

كتابات ادوارد سعيد تحت تأثير جرامشى لها أهمية مستمرة فى وقت يتسع فيه انتشار التراجع من المواقع الماركسية فيما بين من هم على يسار ما بعد الحداثة.

نظرية جرامشى تضطلع بالإنتاج الثقافى والبحث النقدى وعندما طُبِّقت لسعيد أنت خارج الموضوعات ذات العلاقة مع

الهيمنة الاجتماعية والتدمير الذى يحدث بشكل مستمر لمقاومة أية أفكار ثابتة عبر السلوك الثقافى الخانع. ومن ثم فالنقد الثقافى لادوارد سعيد -حقيقة- ينقذ التفكير الماركسى من الحتمية<sup>(1)</sup> والانخفاض الاقتصادى الذى يجعله يقع فريسة للآخر الغربى.

أخذ سعيد نموذجَه فى الكتابة المرجعية للتاريخ عندما كان هاجسه الرئيسى مداره حول فكرة مادية الأفكار. والتنظير السياسى لمفهوم الهيمنة الذى تم تداوله أساساً عبر أحد المقترحات الضمنية القائمة على حيوية اللغة حسب إثارتها والبناء الاجتماعى النشط الذى يلعب دوراً مادياً (ملموساً) فى خلق التاريخ الاجتماعى للعالم. بالنسبة لجرامشى وادوارد سعيد لم يُقدّر التاريخ بعد جهدهما. منذ تأثرهما بالأفكار العالمية ورفضى المسيطر منها ليس على مستوى الاقتصاد وحده. بل بقى بوساطة الماركسيين الأرثوذكس لا جرامشى ولا سعيد إيلاء أهمية إلى الأفكار العالمية منذ أن صدقا أن كل الأحداث والأفكار مُترخّة (تم تأريخها) وموضوعة ضمن سياق الزمان والمكان.

١- مذهب الحتمية يقول عن كينونة أو أفعال المرء هى ثمرة عوامل لا يستطيع اختيارها. (لمترجمة)

## ادوارد سعيد ومشروع التنوير

بينما تتحدد مشاكل تحليل الخطاب في مجال التاريخ الاستعماري، فإن لإدوارد سعيد كثيراً من التعريفات التي تستقر مركزياً على مشروع هيمنة التحرر الإنساني منادياً بحركة التنوير. أكد مشروع التنوير على التقدم الذي يمكن أن يبدأ من الآن فصاعداً من العقل الغربي، كما رأى سعيد أن نماذج حركة التنوير المسيبة للتقدم لديها جدول أعمال متواري حيث تسبب ذلك في خلق ممارسة الاستعمار الناجح.

إذا بقية العالم صنع بقائه القائم على مجموعة القوانين الإنسانية. فالاستعمار سيجد مبرراً لازدهاره غير المحدود (منقطع النظر) على مستوى العالم الواسع لنظام الاستعمار، ثم توظيف الثقافة بدافع نيل قبول المستعمر. لماثيو ارنولد الذي اشتهر عام ١٨٦٠ أقواله الماثورة "الأفضل هو من عرف وفكر" فكان ذلك مقدمة لكل من التنوير وقبول المعيار الجديد للتحرر الإنساني الذين استعمل كمسوِّغ للاستعمار.

مما يظهر أن الضحية كانت في حاجة لمثل هذا التأثير وليس مقترف الجرم هو المحتاج إلى ذلك. طبقاً لمناظرة الحكام كان لازماً على المستعمر أن يلتزم بإرساء قواعد البربرية الأفريقية أو (الهمجية) الهندية، فذلك ضروري لتثبيت جداله. وبالنسبة لإنجاز الأوروبيين "مهمة التمدين" فقد ظهر حديثاً منذ أن خنع البربر إلى الاستعمار. وقع ذلك عبر الآراء المرتبكة التي استندت على معرفة

من يُعتمد عليه، حيث الثابت والشخصية الجوهرية للطبيعة الإنسانية. والنتيجة كانت إنتاج خطاب ثابت لأجناس بشرية دون المستوى يظل المستعمر متقدماً عليها.

هكذا شاعت الثقافة الأوروبية وبلا نقاش صارت مقبولة عبر تفوقها المُعترف به عالمياً. مثل هذه الايديولوجيا السياسية تمنح قبولاً غير ملموس للإنتاج الثقافي. ودائماً يُقبل من الطرف الخانع ولا يعترض أحد عليه. لهذا السبب بدأ المثقفون التقليديون مُسائلة واقع عنف الاستعمار / الامبريالية الراسخة، و في بعض الحالات، دعموا ذلك المشروع عبر كتاباتهم حديثاً أظهر التواريخ ضد الحال التأسيسي لمشروع التنوير الذي كان عارضاً على استنتاج الهوية وسمة مؤقتة للبناء الاجتماعي. كلنا الآن نتقاذف الفكرة المضادة إلتى يبالى بها أى تساؤل أو الظواهر الموضوعية المحسوسة لفكرة هيمنة الغرب مقابل رؤية التنوير حتى لو كانت فكرة التنوير قد صارت درباً من الماضي.



## ادوارد سعيد وفكرة الاستشراق

رصدت الطفرات الجدية فى البحث العلمى حول موضوع الامبريالية نتائج المشروع الاستعماري الأوروبي. السبل التي يستطيع بها الغرب أن يبحث عن هياكل القوة (بناء النفوذ) التي يفهم بواسطته ويستوعب ويقدم فكره، وإذا لم يكتشفوا إحداها يختلقونها ثم يسيدونها عبر الأدب وفقه اللغة التاريخي والانثربولوجيا الاجتماعية التي تؤكد -عمداً- اختلاف الامبريالية وتميزها فى الآن نفسه. لكن ذلك أثمر فى النهاية عن تجرد تلك المجتمعات الإنسانية من نفسها وهويتها نتيجة لتلك الدراسات.

لم يكن الاستشراق -أبداً- علماً غير جدير بالاهتمام، حيث عمل على مُسلّمة قائمة على العلاقات غير المتساوية بين الأنا والآخر مع دفع إلى تحديد كيف يمكن أن يتم احتلال الأرض ومن ثم إدارتها؟ عبر المُسلمات الضمنية المصرة على ادعاء أن الشرق هو ذلك المتخلف الشاذ التابع العاجز عن تعريف نفسه".

مثل تلك الرؤية تأسست استندت إلى الجانب الفلسفى للمركز الذى فى النهاية يطور المفهوم الأكبر للتعصب لأوروبا فى مقابل الهامش المتخلف، طبقاً لادوارد سعيد مغزى ذلك خالى الوفاض الاخلاقى ويحمل أساس تدميرى. يستخدم سعيد فى الاستشراق مرثيتين؛ أولاها رواية تردد: " الشرق مهنة" والآخرى منذ ماركس حتى تصوير المزارع العادى فى بداية القرن ١٨ لدى لويس بوناپرت " لا يستطيعون تصوير أنفسهم، يجب أن

يصوروا أو يمثلهم غيرهم؛ عندئذٍ سخر ادوارد سعيد من المشروع الخرب الذى يمكن الهيمنة الحضرية من تلفيق التاريخ الامبراطورى. بعبارة أخرى يقترح البحث النقدى كى يمارس تماماً تصوير المقاومة التى يمكن أن تكون نهائية وفاصلة فى الأمر أو صحيحة.

يقدم سعيد ثلاثة تعاريف للاستشراق الأول والأسهل يعرف الاستشراق كدرس أكاديمى للشرق من قبل العلماء الغربيين مستعملاً مفهوم فوكو الذائع للسلطة / المعرفة. ثم يقيم سعيد صلات بين ذلك التعريف والتالى له، حيث يخلق دراسة الهيكل المعرفى الأكثر نفعية بين م H يستعمله المستعمرون الغربيون كوسيلة لكسب السلطة، على سبيل المثال، يجادل سعيد حول الاهتمام الأكاديمى فى اللغات الشرقية التى اثيرت من قبل العالم السنسكرىتى السيد وليام جونز الذى اختطف من قبل الانجليز المستنفيين بالنهايات السياسية.

مجال الدراسة انصب على موازاة مع المؤسسات العلمية التى مثلت أى شئ كائن لكن بلا فائدة حيث أصبحت الدراسة عن المشرق نشطة عبر نظام إنتاج نفسه فى القرن التاسع عشر الذى يمثل قمة التوسع الاستعمارى، ويزود الإيمان بجدل سعيد المعرفى الذى يتلخص فى السلطة و القوة على الشرق ثم بداية الحديث عن السيطرة. يستكشف ادوارد سعيد ايضاً التفسير الثالث للاستشراق حيث العمل المعرفى والفروق الوجودية بين الشرق والغرب.

الغرب الذى يؤيد أنماط القوالب الجاهزة للتطور و البربرية همجية،  
تقدم / بدائى رئيسى/ تابع. عقلانى / ضال وهكذا. تنهاوى  
جميعاً فى ازدواجية عظمى بين النفس والآخر. أفكار فوكو  
المتطورة فى

الاعتداء المتوالى والاختناق الحضارى جعلاً سعيد يوضح كيف  
للـ"آخر" أن يُسَيّد ويخلق كى يولد رأياً فى الـ"نفس"، هكذا  
يصبح الشرق بديل (أو خليفة) "نفسه" الذى يعمل علماء الغرب  
على عدم الاختيار والاعتراف بأشياء جوهرية يفتعلها مثل  
الوحشية، الشهوانية الانحطاط وهلم جرا وغالباً يأخذ طابع  
"خصائص" الآخر الغريب. أيضاً يتوجهون كى يروا حسب  
التجانس الذى يرتضونه الناس هناك يصبحون مثل الجماهير  
المجهولين المهمشين أو على الأصح استبدال الفردى بالجمعى.

الاستخدام غير الملحوظ للقوالب الفكرية الغربية الجاهزة  
يتمحور حول الطبيعة العنيفة والحسية المفرطة للشعوب التى منحت  
وولدت القسوة المنطقية وممارسة حقوق الاستغلال الطبيعية  
للاستعمار. حيث يمكن للمستعمر أن يبرر استعباده وحتى إبداته  
التي يمارسها عبر منطق "مهمة التمدين" التي أصبحت حسب بيان  
الخطابات أحد أهم "أعباء الرجل الأبيض".

الاستشراق أصلاً يتكون من عدد من المحادثات التي تتدافع  
بشكل مستمر مع بعضها بعضاً فتتج علماً مستهلك الذى يعتبر

دافعة الرئيسى أن يستخدم المعرفة والسلطة لإنتاج الهدف الرئيسى للدراسة. تكثر الأمثلة التي تعزز ذلك فى قصة الرحلة الفيكتورية التي تتخيل الشرق كأنه "حريم مهيب (ضخم) بالإمكانات اللانهائية من المتعة والإفساد، مما يؤدي إلى ازدهار الاستعمار. قصة السفر مع المعلومات المبالغ فيها والحسابات الوهمية للأراضى البعيدة. إنتاج الخطاب الاثنوجرافى من الهمية المبالغة كما تقدم المعلومات حول الثقافات المحلية التي كادت أن تكون هامة وخرقة.

رادير هيجارد "الملك سليمان المنهك" يظهر شكلاً آخر حول الامبريالية الغربية والحديث لمرافقه الذى ينحو إلى السيطرة على المرأة المستعمرة، لكونها بضاعة مسلّعة فى رمى القوة المهيمنة.

تصبح الجنوسة<sup>(1)</sup> ليست شيئاً أكثر من نوع جنس ما، وتأخذ من علم الدلالة ليست الجهد الوحيد لكن الاستغلال والتحكم" فى الخطاب الغربى الملكات، الأميرات المسلمات يتمثلن كأنهن خائنات مغويات يلتصقن رؤية ثقب مختلف من الحياة مختلف عن الإحساس المسيحى القائم على القيم الأخلاقية، ذلك الجدل حيث إن العالم المسيحى وقف على القيم الروحية وتصور الشرق سماء الرغبة والطمع.

الرحالة فى أغلب الأحيان وصفوا الشرق على أنه مكنن اللذة (المتعة) حيث المكان الذى يزود الرجل الأبيض بالعبيد الشهوانيين

والحریم الممتلكات بالعواطف الأثوية الجياشة. التاريخ الجنسي للقاعدة الاستعمارية الامبراطورية البريطانية تشهد كيف كانت المواقف الجنسية للشباب الغرض من المدرسة حيث كانت المغامرة الجنسية الغربية وامتلاك العشيقات والتمتع بزيارة بيوت البغاء".

من نصوص شكسبير ينهض الشرق على إرضاء الأحاسيس والرغبة الجنسية ونسيان كل علاقات (أو شؤون) العالم بالقدر الذي تجسد في صورة كليوباترا. روما على النقيض من ذلك، تستند على صرح من الثقة واحترام الامبراطورية. انطونيو تمزق بين الغرب والشرق حيث انضم إلى زواج سياسى مع الحكيم "أوكتافيا" لكنه لم يستطع التخلّى عن كليوباترا التي تبدو جائعة عندما تصبح أكثر رضا، كليوباترا في مركبها تصور "إبداع الشرق لنظرة الغرب لنموذج المرأة الشرقية المغرية، ملكة مرغوب فيها (جذابة) فاتنة تغرى الرحالة المستكشف الغربى".

بلا شك تصوير الكسالى والمواطن الشهوانى تجيز للمستعمر أن يبرر إلى القارئ المقيم فى موطنه الأصلى أن المهمة الاستشرافية الأساسية تتجلى فى تمدين (تحضّر) همج الشرق (بربر الشرق) وبذلك ينعم بتأييد شعبى لاختضاع كل القارات تماماً مثل بعثة سيلفيسترايس التي ساعدت على صياغة التصوير الإمبراطورى للعالم. السبب التاريخى والعلم كان قد ذاع صيتهم لالتقاء بنهاية حكمه بدون إحداث أغلاط واضحة للرأى العام وأيضاً استغلال

الرغبة المفرطة<sup>(1)</sup> جدا من الأجانب .

أدلّ الأمثلة على ذلك رؤية المستكشف الارستقراطي الانجلوساكسون بان باول ، إشارة ديجو إلى أن عطيل مثل " فرس بربرى " كلها أمثلة تزكى صورة القالب الجاهز للرجل التقليدى البدائى بتأكيد سافر على تفوق الجنس الأبيض على الكُسالى ، الجبناء ، الخونة الشرقيين . هذه الأنماط من التفكير العنصرى كانت قريبة إلى وجهات النظر الفيكترية على اختلاف طبقيتهم فضلا عن تغذية الخصوصية الشخصية للأوروبيين مما يُخوّل لهم تعزيز الأغراض (الهايكل) للبنية السياسية فى موطنهم .

تمنح الدراسات الاستشراقية السيطرة والمعرفة التي تستحوذ على مساندة الامبراطور (الاستعمار) نماذج السرد الغربى التي ألفها الانثربولوجيون وتهيأت (عبر) بنية خطاب الهيمنة القائم على الإثارة والخطأ الذى بدأ الآن يشكك عبر البارمج المراجعة التصحيحية للمؤرخين ونقاد الثقافة ما بعد الاستعمارية أمثال ألبرت ميمى الذى جادل وناقش الاستعمار كدلالة ضمنية على الانتقال من التاريخ الشخصى إلى التاريخ العام ، تلى ذلك صنع التاريخ الأوروبى كبنية امبريالية (استعمارية) حيث يجب أن نتشكك به كى يلغى الهيمنة الغربية " وقبولها الايديولوجى " لآى خطأ كأنه حقيقة " .

١ - Xenophobic زينوفوبية: هى الرغبة الشديدة غير المنطقية من الأجانب وكراهيتهم . (الترجمة)

تفكيك الأساطير الأوروبية للشرق دخلت في سياق سياسى جديد مع طرح الثورات الجغرافية جانباً فوق وقف تراكيب جديدة وتبدل مظهر الاستشراق. كل العقد الذاتية والتناقض وعدم الاستقرار أو التزعزع ووضع البنى الاستطردية (منتقلة من موضوع إلى آخر) حسب جدل فوكو الذى يكون دائماً فعال ومتقطع / غير مستقر لا يتبدل ساكن أو موحّد استخدم سعيد هذا النقاش لتوضيح الدلالات الخاصة بالشرق الذى حتماً يتضمن تعدد أوضاعه متغايرة العناصر.

نقاش ادوارد سعيد يستند على وجوب رؤية التفسيرات المتشعبة (المتباعدة) لواقع الشرق التي تكون ضرورية لإدراك عدم التجانس مع العرب أو الهنود. ربما تكون الحالة كذلك. مثول التعددية للعيان لكل من مملكة السياسة الجمالية والقيمة.

وفى مجال المعرفة الإنسانية تطلب الأمر سؤالاً فى الفلسفة الأحادية والمذهب الذى يتشكّل منه كل الحقائق والمعرفة كأشكال معقولة منطقية متجانسة وهناك اتحاد نهائى (وحدة أخيرة) بين النهايات الإنسانية وجه ذلك الانتباه لضرورة إيجاد قانون جديد لكتابة التاريخ ليس فقط بإعادة صياغة التاريخ ؛ لكن أيضاً الأحداث السيكلوجية للنصوص الغربية بطريقة تشمل كل مناطق السياسة الثقافية السرية التي ربما تأتى على السطح، والأعراف الواقعية للأدب خاصة (الواقعية الأدبية) يكون مشكوك بها. إنهاء القراءات البينية للاوبرا والرواية تأتى متوازية مع النصوص الثانوية



Sub-text المخفية فى البيانات التاريخية والميل تجاه المادة غير التاريخية التي لا يمكن لسلطة أن تختفى وراءها أو تخضع لمثل اقتناص الجهود هذا.

فى مراكز النفوذ عبر مناهج الهيمنة المنتظمة . يرد بعدوانية الأسلوب الجانح إلى التعميم الشديد المربك ضد التاريخ . فيزداد المدى المتاح للتفسيرات باستمرار فى فرضا لايدولوجيا الفاشية وراء الفئات الإنسانية للمساواة، والأمر وبذلك الوسيلة تقدم سياسة المنطقة الثقافية ما بعد الاستعمارية وتحليل الخطاب الاستعماري الجدير بالاحترام النظرى من وجهة نظر الهيمنة بالطبع.

بعض النقاد الاسلاميين المتعصبين أو الهندوس المتنوعين لجأوا -على أية حال- لفكرة التجانس وأقرت الهوية الظاهرة جدا بوساطة الاستشراق . جزئياً يستند ادوارد سعيد على نموذج المستشرقين الذين يعملون على فرضية أن تلك التواريخ المحلية /الوطنية أصيلة وحقيقية . اى نقد لآرائهم يؤدي إلى الفتاوى لأن تشكل مثل هذه التفسيرات تهديد نصوصهم المقدسة أو تديم الشكوك حول الترجمة أو نقل الأحداث الحقيقية أو الدين .

ولا يسبب ذلك مفاجأة بما يكفر فكرة المركزية (خاصة كلام وفكرالسياسة ) أو القصص الأصلية الرئيسية التي تعرض للخطر جماعة كل من المسلمون المؤمنون والمستشرقون الأوفياء ؟ يعارض سعيد بعنف كلا الوضعين بموضوعية لأن " مثل هذه المقترحات



تمثل فعالية دينامية متغيرة وحقائق إنسانية معقدة بغير وجهة نظر جوهرية بشكل غير نقدي.

ساند ادوارد سعيد أيضاً الفكرة القائلة "الشرق حقيقة أبدية" وذلك نسبة إلى الجوهر الغربي الثابت. التاريخ أيضاً يعتبر دينامي يحمل فاعلية طبيعية جداً ومراوحة ولذلك يجب أن يدرس حسب رد فعل (مواجهة-احتجاج) الاستشراق في أية منحة تراصت (اصطفت) بالهيمنة العسكرية (بغرض نهائي) بهدف ينتهي بتأسيس الامبراطورية.

## ما الخطأ في الاستشراق؟

ثمة بعض الطرائق الإشكالية ضمن فرضيات ادوارد سعيد حول الاستشراق. حيث الدراسة المنتظمة والموقف الموحد للشرق يكون فردياً (عمودياً) ويبعد مع سحق الفرد التضاربات والتنويعات الغربية للمستشرقين، كما هو ممارس من قبل الانجليز والفرنسيين والاسبان والبرتغال علاوة على ذلك، إجمالاً تسلط الخطاب الغربي مرفوضاً كحقيقة موثوق بها، وحسب تلك الفرضية الضمنية هناك تجسيدا حقيقياً. الآن هناك محاولات لتصوير فكرة الثقافات الوطنية الراسخة التي تدور خارج الاستشرقات وعكسها.

بينما يضع دينيس بورتو فكرة الاستشراق في شكل واحد أو آخر فيما لدينا، لكن في كل ما نستطيع نحن امتلاكه على الإطلاق. النقاد -أيضاً- يدعون أن تلك المناظرة في الاستشراق متناقضة القدرة التي ناقشت و أيدت فيما بعد بأنها يجب أن تلازم النقاد.

ربما يدعم ذلك -أيضاً- أن سعيد ناقداً للسائد، لكنه يقر ولاءه لدروس النصوص الغربية العظيمة. القضية المهمة التي ينبغي الاحتفاظ بها في الذهن هي الدور الفردي الذي ليس فقط يصف نفسه مع الطبقة العاملة الظاهرة ضد قرار الهيمنة "، لكن ذلك -أيضاً- بقدر كبير في إذكاء الهيمنة باستمرار. الثقافة الدائمة التي

تخرج عن مثل هؤلاء المثقفين العضوين، وتحفظ تراث ماثيو  
ارنولد لابد بالضرورة أن تؤيد بعض الأعمال الشرعية

فجأة يقدم ادوارد سعيد دليلاً بينياً على محاباة القانون الغربية  
التي تتضمن سويفت واوستن ودكتور ويستس وكونراد بالإضافة إلى  
آخرين. ويشكك سعيد في أن المؤسسات الثقافية يمكن أن يكون  
لديها منتج أدبي مشرقاً حتى الآن وفي الوقت نفسه يؤيدهم وتلك  
هي النقطة الثابتة التي التقطها إعجاز أحمد وهاجم ادوارد سعيد  
فيها من ناحية.

كان لادوارد سعيد ملاحظات حول تواطؤ معظم البشر مع  
المشروع الاستعماري ضد الهامشين لذا لمح سعيد للاتجاه نحو  
التعاطف والتلاحم والترسيخ معهم بما يصنفه عبر الملاحظات  
الإنسانية ضمن المنادين بحقوق الاقليات خاصة الثقافية والمشردين.  
يقول أمحمد: ما يعدّ رائعاً التأكيد الاذنع على القيم الإنسانية تلك  
الإنسانية التي تسجل دائماً بوصفها تاريخاً رافض للواقع بشكل  
صريح". ومجموعة الرفض والجموع الإنسانية الغربية وكذلك  
الرفض الـ "نيتاشوى" -نسبة إلى نيتسه- يمثل نظرية فادحة لعالمية  
الناقد الذي انشغل بنقاش كلتا الطبعيتين السياسية والأدبية خاصة  
أولئك الذين يتعلقون بالشرق الأوسط، لكنه -في الآن نفسه-  
يذهب إلى اكتشاف التشويهاات التي تعتور بناذ الشرق الأوسط،  
ذلك أن تكوين وبناء صروح الشرق مشكوك فيها.

تقديرات سعيد دائماً للتاريخ على أنه متواطئ مع النظام الاستعماري، المعنى والقيم بما يؤدي إلى طريق الاعتراضات على كل ما يتضاد مع تلك الممارسات الهيمنوية. ولو حسبنا أن الهيمنة عامل مهم وسائد ضمن العلاقة الاجتماعية فهناك دائماً الشراذم والهدّامين الذين يبدون مقاومة ولو ظاهرية إلى النظم السياسية والاجتماعية العالمية.

## الثقافة والامبريالية

بينما زود الاستشراق القارئ بنقد العلوم والأفعال الامبراطورية، إلا أن الثقافة والامبريالية ركزت على القراءة وتفسير الشكل الفني الغربى ضمن ما يُعرف بالعلاقات الثقافية المتداخلة. فحص سعيد العلاقة بين الامبريالية المهيمنة والثقافة خاصة إبان الاستعمار الفرنسى والبريطانى فى القرن التاسع عشر والذى عدّ تاريخياً من مغامرات البشرية المهمة، حيث تم -أيضاً- اجتياح المسارب الثقافية المختلفة من الرواية والأوبرا والشعر حتى أجهزة الإعلام كما وضع فى دراسة "الاستشراق" وعليه تصبح الثقافة فن المؤسسات الامبراطورية التي تهندس تركيب المشاعر وتمنح المستعمر شعريّة كبرى للهيمنة.

فى دراسة ادوارد سعيد "الثقافة والامبريالية" دقق سعيد النظرات فى السمة الحقيقية للفن والتي وظّفت بشكل حاسم لاستبقاء واستمرار الأنظمة الإمبراطورية على اعتبار إيجاد رؤية تفسر كيف تستعمل الثقافة كبنية فعالة لتأسيس الامبراطورية.

ووجهة النظر الموضحة لمفهوم الإمبراطورية تنحصر عادة فى الرواية الانجليزية التي -طبقاً لها- تجسّد ركيزة أساسية فى التشكيل الثقافى. فقد استفاد البريطانيون من الرواية وفكرة الامبراطورية المهيمنة الموسعة، خاصة أنها منتج القرن التاسع عشر، أى حال تواجد المجتمع البرجوازي، وقد منحت الرواية صورة مصدقة

مؤكدّة دائماً للسياسة الأجنبية البريطانية. خذ على سبيل المثال رواية "روضة مانسفيلد" لجين أوستن، حيث يحللها سعيد من ناحية نقص اهتمام أوستن بالتاريخ الاستعماري أو مخاوفها من التعمق والمبالغة في القضايا المحلية، يضع سعيد الرواية ضمن نطاق أسلوب الهيمنة والعبودية الخاصة. السيد توماس بيرترام في منتزه مانسفيلد للاعتناء بمشروعه الزراعي كضرورة للمحافظة على النظام وبالتالي التحكم في أسلوب حياة المواطن الأصلي في المكان. وعليه يتاجر في العبيد ويوظفهم لصالحه أو بما يحقق هيمنة الثقافة الاستعمارية على البيئة التي يجتاحها ولعى كل سمات الحياة.

هكذا يرجع إلى كل محتوى الرواية من منظور استعماري كي يحلل النصوص الثانوية التي تؤول جميعاً إلى جنوح كل مواقف الرواية نحو الامبريالية. ادوارد سعيد في تحليله لأفكار النص تجاهل في أغلب الأحيان بعض العناصر الدفينة في الرواية، وذلك بقصد وسم جين أوستن بالوكيل البريطاني للامبريالية أو هدف سعيد إلى أن يعرّي دورها في عرض عنف الحكم الاستعماري البريطاني ومن ثم أراد أن يبرز الطبيعة العامة للرواية التي تأخذ الأسلوب الامبريالي كمُسَلِّمة طبيعية حتمية ضمن سياق الثقافة البريطانية. هناك بالطبع قدر من الاستمتاع بقصة أوستن لكنه غاب عن سعيد المهتم بشكل أساسي بجنى الثمار الامبراطورية في النص.

بنفس الطريقة لحل ادوارد سعيد أوبرا عايدة لفردى، حيث إنه عمل فنى قائم على الامبريالية التي تدعم الهيمنة عبر ترسيخ رأى عام يؤكد على وجود الحضريين بوصفهم مركزاً إلى جانب أقليات العالم الثالث المهمشة. وشبكة الانتسابات للمذهب الامبراطورى تصبح ظاهرة جلية خلال قراءة متفحصة للأوبرا، وهو ما اكتشفه سعيد عندما ربط بين مادة بحثه والنزاع فى السياسة الخارجية لإيطاليا وفرنسا وبريطانيا. مصر كانت مستعمرة من قبل بريطانيا وكذلك كانت ركيزة لغزو عسكرى كبير يصل لحد أثيوبيا، كما كان الإيطاليون والفرنسيون طموحاتهم الاستعمارية أيضاً. تحمل الأوبرا ذلك المعنى الضمنى أيضاً وبذلك تكون السياسة البريطانية فى مصر متساوية مع أحداث الأوبرا الإيطالية كما يجادل سعيد مقررأ أن الشكل الإمبراطورى قد تشكل خصيصاً لإثارة إعجاب الجمهور الأوروبى بشكل خاص، والمثال فى هذا الأمر شديد الوضوح ويتمثل فى كيف تتحد الثقافة مع السياسة لمنح إحساس المركزية للفنون والأفكار الأوروبية، وما هو رائع كيف أن هذه الأشكال الثقافية تفوز بالرضا والاستحسان الاجتماعى دون الكشف عن مغزاها الامبراطورى الحقيقى، وهذا مثال جيد دال على كيفية عمل وفاعلية الهيمنة فى رواية "كيم"<sup>(1)</sup> لرديارد كيلنج مثال ينطبق على هذه الحالة التي تعتبر النص ليس فقط طريقة لفهم

١- ظهرت عام ١٩٠١ بعد اثنتى عشرة سنة من مغادرة كيلنج للهند وهى مسقط رأسه والبلاد التى سيطر اسمه مرتبطاً بها دائماً. راجع الثقافة والامبريالية صر

أسلوب الحياة الهندية، لكنه يقدم سبباً جوهرياً لهيمنة الاستعمار على معظم الأرض. بريطانيا في الرواية تساند العدالة والسيطرة التي لا غنى عنها في البلاد البربرية مثل الهند. والهند مُسيرة قصصياً لتحقيق السيادة البريطانية التي تقرر من ثم الحاجة الحتمية لتحديث تلك الأنحاء.

تلك طريقة سعيد في عرض وسيلة الهيمنة على العالم اجتماعياً، وجعل ذلك - أكاديمياً - مقبولاً، حيث يساعد على تلك الفكرة وجود الثقافة الشعبية، القصة، الصورة، الأوبرا. كل تلك تمثل أموراً متشابهة لأحداث مختلفة يمكن أن تقرأ خلال استراتيجية الهيمنة.

يقدم سعيد نقداً ودراسة للتنافر والتواتر الذي يمكن أن يقع بين الجماليات عبر النظرات الثقافية والتاريخية، كذلك إنتاج واستهلاك المادة المكتوبة يتضمن - اجتماعياً - احتواء ايديولوجيا محددة لمصلحة قيمة معينة، وهذا ما يحيي دراسة علم النص، فالثقافة والامبريالية مهمة لعالمية تواجد هذا العالم والإشارات العلمية تعطى للقارئ النص المبحوث بشكل جيد ومن ثم إعادة تكوين التاريخ بشكل خلاق خاصة في القرنين الأخيرين المجسدين للامبريالية الأوروبية امتداداً من النزعات الخيالية الماضية إلى الأحداث المعاصرة أي ما بعد الاستعمار أو سيناريو ما بعد الحداثة الذي يمكن أن يُدعى بالفترة الفاصلة من الكفاح القومي المعاصر. وهذه النظرة العامة للتاريخ تعمل ولا تهمل الانتشار المستمر للواقع المعيش.



## الميول في العالم الثالث

تكافح القصص المعارضة لفكرة العالمية من أجل أن يذاع صيتها، وزعم المقاومة داخل أطروحة ادوارد سعيد عن الثقافة وعلاقتها بالامبريالية والتناقض الذي يمكن للمرء اكتشافه هنا ينجم عن علاقته الغامضة مع مصطلح ما بعد الحداثة الذي يرفض تجميل القصص أو الأحداث ومع ذلك تلقى رؤية ما بعد الحداثة تقريعاً كبيراً خاصة مع تناقضات وجود العلمانية والواقع، ومن ثم يذهب المرء إلى البيت بالسيارة بعد أن يكون قد علم منهجه المتواتر الذي يؤكد على ازدواجيته والتعددية التي لم تحل نظراً لوجود عدة تناقضات حياتية، لكن التأكيد على أن تؤيد نظرة سعيد التاريخية شريطة وجود واقع ما بعد الحداثة، ولا ينكر ذلك.

كان على ادوارد سعيد ألا يحصر نفسه في تحليل كتابات غربية وحيدة دون غيرها بهدف ترسيخ فكرة الهيمنة الغربية، حيث الاستعمال الأجنبي للغة يعيد الكاتب إلى فكرة الاستعمار وإعادة تشكيل الحقيقة الثقافية التي تظهر في تأويل الكلمات والحوار الغريب داخل النص، أكثر من مجرد كونه حواراً عادياً، فهناك في تلك النصوص أشياء أكثر من مجرد الظاهر الذي يحكم به بعض النقاد نزوعاً إلى اتهام كتابها بميولهم لترسيخ فكرة الاستعمارية.

ومن هنا ينبغي إعادة وضع النصوص في سياقها التاريخي اتفاقاً مع منظور ذلك التاريخ ومثل هذا المشروع يستهدف تحسين

هوية تلك النصوص وعدم ربطها بالضرورة بثقافة الامبراطورية، خاصة وأن أوروبا قد واجهت المعايير المركزية عبر إيجاد العملة الموحدة "اليورو" كى تحفظ هويتها وتلغى عصر الاستعمار وتطويه فى عالم النسيان الحضارى. وهو نوع من الحاجة إلى المقاومة الثقافية، وعلى النقاد لنظرية ما بعد الاستعمار أن يتبعوا أسلافهم، وان يستدعى الناقد الرواية المحلية لتاريخ بلاده قبل وجود المستمر.

يشعر ادوارد سعيد أن الاستشراق نوعاً من المقاومة وهى أبلغ رد على الحركة الهائلة لتصفية الاستعمار عبر العالم الثالث. وذلك بسبب علو الأصوات المهمة التى قد تشكل دون انقطاع وتعيد تشكيل بعض المعانى مثل القوة والمعرفة كى تستمر تلك المعانى على قيد الحياة.

كتابات تشينو اتشيبى ونيجوجى واسينجو وغيرهما من روائي إفريقيا الأوائل على سبيل المثال، فى نص "الأشياء تتداعى" لاتشيبى يعكس الكاتب صورة مجتمع "اجبو" فى نيجيريا والعادات المتأصلة فيه. فالنص الأدبى كأنه ليس تمرين على فضح الواقع السياسى خاصة من ناحية الخطاب، بل إن جماليات النص تنبع من خارجه (الواقع المحيط به)، ومن خارج القلق السياسى أيضاً لتؤكد على الوجود عبر وصف الواقع والتقاليد الشفهية ضد غير العادلين وكذلك ضد التأثير المهيمن لثقافة الآخر (المستمر).

تلقى تلك الروايات يختلف طبقاً لميول النقد الأدبي التقليدي الغربي حسب تقصّي النزاعات والتواصل ودرجة الجفاء بين الثقافتين المنقول منها والمنقول إليها، بالطريقة نفسها نرى الدليل على فتنه اللغة البنغالية في القرن التاسع عشر حيث الروائيين والشعراء الذين ظهرتوا في تلك المرحلة، وقد كان لديهم أيديولوجيا (اتجاه أيديولوجي) وخلاف معرفي خاص بالوجود الاستعماري، حتى حين سادت الاستراتيجيات الهدامة كان المؤرخون القوميون - غير المعدودين - يواصلون الكتابة من منظور غربي كلية مورطين أنفسهم في الايمان بالكتابة بطريقة التي كُتِبَ بها عن التركيب الاستعماري السالف عليهم .

جادل فرانز فانون بشكل صحيح حول فكرة تحوّل البرجوازية القومية إلى أشكال من التميز العنصري؛ فضلاً عن الانفصالية التي تجسد الهيمنة الاستعمارية السالفة التي تُستبدل بمجموعة - أحادية - عرقية مهيمنة تديم قوة تلك المجموعة عبر تراث المستعمر العصي على التحليل خاصة إذا وجهت المصالح الاستعمارية تجاه إهمال شؤون البرجوازيات الصغيرة، لكن في أغلب الأحيان تحصل الوجهات الاستعمارية على غاياتها عبر المبالغة في المعارضة الكاذبة للغرب. استعمل التركيز الأساسي على الكتابات حول الاستشراق بحذر من الأجانب خاصة من جانب القومية الموجهة للهيمنة على العرب والعالم الهندوسي المتعلق بالأصولية الجامدة، ومن ثم اكتشف إدوارد سعيد بل أكد على أن فكرة خطاب

الاستشراق ليس أكثر من تاريخ طويل من النقاشات والصراع على المصالح، وهو فى الحقيقة ظن أنه بذلك يبرز الممارسات الثقافية المتعددة التي تمر عبر الجانب التاريخى لخطاب الاستشراق .

أما شروط الاستشراق فهي قائمة على ضرب أى مشروع شوفينى أو مشروع يتجه نحو العالمية ويكون أكثر إقناعاً خلال فهم تاريخه والتعبير عنه . هناك استراتيجيات متعارضة القوة يستند إليها عمل إدوارد سعيد بهدف قراءة الثقافة والأدب خارج المخاوف المنحصرة فى الفضاء التاريخى والأفكار العرقية وجغرافيا التواترات العالمية القائمة التى تحتج على جوهرية أو عالمية الحوار السائد مع الغرب، بينما تكتب جين براكش عن كتابات خطاب ما بعد الكولونيالية أنها : «تعيد ترجمة وجود الهوية ضد عملية التعريف المتناقض بما يفتح المجال لنظريات مركبة متشابكة، إضافة إلى إعادة ترتيبها وفق تحديد موقع الخصومات التاريخية فى العملية المتسارعة للرواية ومن ثم إعادة استظهارها» .

## بين التاريخ والحقيقة

يجب أن تؤخذ ظاهرة الاستشراق كرمز صغير لكنه متكامل دال على الغرب ولا يجوز لقارئ إدوارد سعيد أن يضع فى عين الاعتبار أطروحاته - خاصة تغطية الإسلام - كنوع من أنواع الدعم السياسى الإسلامى أو حتى مساندة للأصولية الإسلامية، خاصة وقد اتهم إدوارد سعيد بالجنوح إلى ذلك الدعم. يستند أستياء النقاد اليمينيين ضد سعيد على ظلم رسالة الاستشراق حيث يعتبرونها مستندة على المعارضة الثنائية لوجود معسكران متنافسان هما الغرب القوى مقابل الشرق الضعيف. على أن ادعاء إدوارد يجب أن يوازن بين تطوير كل ثقافة (منقول منها - منقول إليها) ضد وجود الذات الأخرى المتنافسة والمختلفة عن غيرها. يقول سعيد : «بناء الهوية يتضمن وجود النظراء (الاعتراف بالآخرين) الذي تخضع حقيقته دائماً للتفسير المستمر وإعادة إنتاج وشرح اختلافاتهم عنا» وهو - أى سعيد - بذلك يتخذ موقعاً ماركسياً قوياً يفترض أن فكرة الهوية قائمة على التغير باستمرار والتي لم تكن نهائياً نافذة إلى محل ما هو سياسى وثقافى وتاريخى فى العمليات القائمة بين الأنا والآخر.

فى رأينا أن تدوين التاريخ بين طرفي نقيض (الغرب - الشرق .. مثلاً) محدد بتواجد وتراتب القوة أو انعدامها أقصد بالطبع قوة السلطة والتمسك بمبادئها دائماً، بيد أن هذه الفكرة تواجه خطراً

واحدًا حيث كل أنواع التاريخ تهمش الجنس أو الجنس الآخر كما هو مُشار من قبل جيرترود هيميلفارب الذى قال : «لم يكن التاريخ مجسدًا بدقة لأن الطرفين (الشرق والغرب) لم يكن بينهما تاريخ مشترك لأن التاريخ العام - إذا جاز لنا التعبير - لن ينكر أن الأرض مشاعًا عامًا للجميع، والإنسانية صفة لكل الناس مهما كانت جنسيتهم أو صنوفهم أو دياناتهم وما شابه ذلك. إذا لم ينسب التاريخ تجاه هذه المسلمات فسيفقد التماسك والمصداقية والاستمرارية. فى الحقيقة سيفقد كل المعانى، وبعد ذلك إذا كانت الحقيقة نسبية؛ لا حقيقة الحدث العُنصرى أو الحديث المضاد لكل شرعية على حد سواء؟ ليس عدم المساواة بين الأجناس خاصة المختلفة والمتعددة حرية بالرصد فى النظرية النقدية لما بعد الحداثة وعدم تحديد أية مهمة حقيقية ترنو إليها الكتابات المعاصرة. كيف نجيب عن أسئلة ما بعد الحداثة؟ هناك بالطبع مشكلة مترامية / واسعة الانتشار هى الانكار اللانهائى لمعنى الحداثة أصلاً؛ ما إن تبدأ فردية وتنتشر فى السياقات فيما حولها إلا وتقريبًا تنهار. على أية حال وجهات النظر ما بعد الحداثية تعتمد على التاريخ الإنكارى لكل ما قبلها وعلى ذلك تفتقد الجدال الرئيسى معه .

ولا أحد يرفض أبدًا أن يكون التاريخ مكتوبًا حتى إذا أهملت نظرية ما بعد الحداثة الحجج المنطقية الرامية إلى ذلك عبر التحقق والبحث الأرشيفى. لكن ذلك لا ضرر منه لأن كل التفسيرات الرامية إلى تلك النقطة صحيحة .

وتؤكد نظرية ما بعد الحداثة أنه ليس هناك - مطلقاً - معني حقيقى واحد. وقد جادل فى ذلك الكثير من المؤرخين التقليديين عبر اعتناق المبدأ الدوجمائى كحقيقة خالدة لا مرأى فيها، وفحوى نظرية ما بعد الحداثة - حسب ما يعتقدونه - إنها مجرد تلفيق ثقافى، وعلى ذلك لم يمنحوا أنفسهم الفرصة لقراءة التاريخ كأنه قصة إبداعية شائقة لا يُفترض صدقها عامة. أو تُقدّر حسب المنظور للماضى بصورة صحيحة .

على ما يبدو ينبغى أن يكون المؤرخين ذوى نظرة أكثر إبداعاً بما ينعكس على انضباطهم فى رصد الدور المبدع فى بناء التاريخ - خاصة القصصى - . ولأنه لم يحدث ذلك - أي فقد النظرة الإبداعية من عين المؤرخ - فقد وجهت منهم نظرة مُعتلة جداً إلى الكتابات ما بعد الحداثية. وهناك مشكلة أخرى تتمثل فى الإدعاءات الكبيرة الناتجة عن تلقى نظرية المعرفة الغربية والتأثير المتزايد للثقافات الأخرى على التفكير الأوروبى خاصة قبل عصر النهضة، ويثبت ذلك من قبل عبارات مضادة أنتجها الغرب مثل «ما بعد الاستعمار» «ما بعد الحداثة» «ما بعد البنائية». وهدف الرؤى العامة تجاه تلك العبارات هو فرض مقولة الهيمنة وتدويرها على كل الثقافات، خاصة إذا كانت هناك رسالة نصية تمنع تسرب كل ما هو غير أوروبى إلى الوجود القار فى النظام الأوروبى الصاعد.

وعلى الرغم من أن مثل هذا الأسلوب فى الرؤية العالمية الجديدة يشكل تحريراً للممارسات السياسية خاصة فيما يتعلق بالحديث عن القصة الرئيسية لهدف المستعمر؛ فإن هذه الرؤية العالمية الجديدة استعملت بوساطة المترجمين كوسائل فطنة للسيطرة على الآخرين، ومن ثم ركن الأدب المحلى وترهينه بمثل هذه السيطرة، مما دفع إلى وجود خلاف فعلى بين الـ «نفس» والـ «آخر» بما أحدث بلبلة وأزمة عامة وتناقض مهم لا يمكن له أن يُهمل مُطلقاً نظام الامبراطور وقبضة ملكيته الخاصة.

تنطوى سياسة ما بعد الاستعمار بشكل تكاملى ضمن ما بعد الحداثة، بما يجعل ممارسة كتابة التاريخ يجب أن تتم ضمن «تعالى النص» أو ما عُرفَ به «ما بعد البنيوية» عبر التصوير الأُمى الواقعي، تباين الموضوعات، الجنس، التفاعل بين الكتابة والسلطة .



## سعيد ناقد القرن

تباينت كتابات إدوارد سعيد حول السياسة والموسيقى الكلاسيكية الغربية بالإضافة إلى التاريخ والأدب، وكانت كتاباته دالة وفياضة في معناها تعبر عن النقد الثقافي الشمولى مثل راييموند وليامز كما يظهر في كتابه «العالم والنص والناقد» الذى استعمل فيه طريقة فى الكتابة تتسم بالثبات الذى يتسق مع التوظيف النقدى لأفكاره. ثم يمشى فى شرح هذه الأفكار بإسهاب فى مجموعة من المفاهيم الإجمالية التى تؤكد سخطه على القوالب النقدية الجاهزة ونفاد صبره من رسوخ فكرة المؤسسة فضلاً عن رؤيته النقدية لفكرة المصالح الاستعمارية الخاصة. كذلك العادات الأرثوذكسية التى تسيطر على العقل. ولم يخل سعيد نفسه من نقده الذاتى، حيث كان أكثر خلافه مع نفسه فى الوقت الحاضر يبدأ بمنعها من التحول إلى العقيدة المنظمة المؤمنة على كل شىء. وقد أراد إدوارد سعيد أن يعارض كل أشكال الاستبداد والهيمنة والإساءة لكل منتج عقلى حتى لو كان من عرق بشرى أدنى بما ينتج معرفة غير قسرية لمصلحة الإنسانية وإحساسها المتأصل بالحرية.

يؤكد إدوارد سعيد فى «العالم والنص والناقد» على المسؤوليات الرئيسية للناقد وأولها معارضة القوة المهيمنة للتشكيلات والتكتلات الثقافية القائمة والمستمرة، حيث الأهمية القصوى للنقد الثقافى تكمن فى رفضه لأن يكون مجاملاً لكل خطاب حتى لو

كان طبيعياً، وهدف إداورد سعيد الحقيقى كامن فى الكفاح السياسى العنيف ضد مبدأ الهيمنة .

تصلح نصوص إداورد سعيد لكل زمان وأوان ومكان، هكذا تكمن أهمية طبيعة الاتصال بين النص والحقيقة السياسية التى تُنتج فيه وأراد توصيلها، وعلى ذلك يكتب إداورد سعيد ليؤكد على الربط بين النقد والحياة، وذلك نظراً لكونه منفياً فلسطينياً غير محدد المكان (الوطن) سوى كونه فى الولايات المتحدة دائماً منشغلاً بمحاربة الموقف السياسى الذى يشكل - لا محالة - الخلفية التى تجعله يؤمن بتطبيق فكره غير المنحاز لطائفة أو أشخاص .

فإداورد سعيد يرفض أن يصبح ثابت ومرتكز إلى ضرورة تعبيد الماضى، الذاكرة، الخيال، القصة وتفاعلها واندماجها فى الأسطورة خاصة بشكل مستمر فى التاريخ والثقافة والقوة، وعلى ذلك أحدثت كتابات سعيد وتجاربه قدراً من الاستمرارية والتأثير . . خاصة إذا سلّمنا أن الاستمرارية والاختلاف هما نمط صدق التاريخ، وعلى ذلك يرفض إداورد سعيد تشكيل الثقافات التى يصنعها الآخر، وكذلك يرفض تذلل وخضوع أية مشكلات أو مواضيع للأنظمة - الاستبدادية بالطبع - .

ظهر ذلك فى أطروحته للدكتوراه التى كانت حول جوزيف كونراد التى نالها من جامعة هارفارد، بعد ذلك استخدم نفس الأطروحة فى كتابه «بدايات» لكنه عندئذٍ طعمها بميل سياسى، ثم

النهج نفسه اتبعه فى عمله حول استراتيجيات المشرق. وبعد إكماله لعمله المؤثر الاستشراق بدأ سعيد فى كتابة تاريخ نزاع الشرق الأوسط عبر أهم مسألة فى ذلك النزاع، وهى مسألة فلسطين، ثم ظهر كتاب تغطية الإسلام، ويشير موضوعا هذان الكتابان بوضوح إلى موقف سعيد الايديولوجي الذى مكّنه من ربط التاريخ ليس بالثقافة فحسب، بل بالسياسة أيضاً. وتظهر نفس مركزية جداله النقدى المؤيد للتدخل والتعدى الذى يمارسه الآخر فى كل شىء، ومن ثم يظهر عبر رؤية سعيد أن للكتابة مسؤوليات أهمها فضح زيف الخطابات السياسية التى تخفى تحت سطح الكلمات وتتستر خلف ما يعرف بجدول الأعمال الذى يقرره السياسيون.

وفى رأينا أن موقف سعيد هذا يمكن أن ينجز خلال إعادة كتابة التاريخ من جانب «ما بعد البنية» وكذلك فى الاستشراق الذى هو إعادة حكي القصة عبر السيطرة الثقافية على المشرق، وهنا يكمن التزام الناقد الثقافى الواعي والمؤرخ الذى يتدخل دائماً فى عرض تطبيقى لنظرية النقد وإفساح مجال العمل لها عبر الممارسة الفعلية. بمعنى آخر يحدث ذلك عندما يجتهد الناقد الثقافى أو المؤرخ كى يطرح ما بداخلها نظرياً للممارسة العملية العادلة التى تحكم على الواقع بضمير خالٍ من الميول. بيد أن نظرية إدوارد سعيد لا تهمل حقائق السلطة والقوة المهيمنة على العالم من قطب واحد أو من وجهة رأسمالية مُطلقة؛ ومن هنا ينبغى أن

يكون هناك آليات من المقاومة والضدية التى يجب أن تكون حاضرة بقوة فى القلب .

يشعر إدوارد سعيد بأن للفعل الثقافى والحضارى الأهمية السامية المستمرة، ومن منطلق هذا المبدأ تشعبت رؤى إدوارد سعيد الأكاديمية، لكنه بقى مُعاديًا بشكل جوهري وجذرى وشكاك بشأن النظرة الصمنية للإسلام أو للمشرق. لكن مثل هذه الحقيقة الجوهرية ليس لها سند مستقر فى الواقع ككل بناء أيديولوجى للتاريخ الإنسانى مرتبط بتطوير وجهة نظره منذ بؤادر الكفاح الذى مورس للسيطرة على الأرض التى كانت من أهم غايات ذلك التاريخ، فالمهمة الأساسية لعالم الناقد ليس الكفاح فى إتجاه واحد لكن إلى غايات متعددة على الرغم من القهر الكبير الذى يمكن أن يُمارس عليه، فالناقد الأدبى هو وحده الذى يحدد موقعه بشكل فعلى ضمن السياق الاجتماعى، ثم يحاول التحرك سعيًا وراء استجواب الأصول الثابتة للتاريخ الواقعى الجامد دائماً .

لكن إذا أردنا الإنصاف نقرر أن إدوارد سعيد ليس جامدًا مثل نقاد ما بعد البنيوية الذين نبذوا كل التواريخ، ففى بدايات كان إدوارد سعيد يجادل بشدة تلك النصوص الأدبية التى تؤصل للبدايات، ومن ثم تترس سعيد لذلك ببعض النوايا الخرسانية. على الرغم من الضغوط الاجتماعية التى أحاطت به فقد تملك كل المكونات التى فرضت عليه الالتزام. حيث الموقف الأيديولوجى النشط الذى يؤمن الناقد به ويقول فيه ما يفعله - خاصة مشكلة

الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية التي كتب كثيراً جداً حولها .

يرفض إداورد سعيد دائماً النظرة الأصولية الضيقة، وكذلك كل ما هو إثنى في المعتقدات، فكل بدايات يجب أن يكون لها أصول حتى لا تُرفض كلية. ويجادل سعيد - أيضاً - في كل كتاباته بوصفه علمانياً، لذا كان التفسير المتمرد الذي كان يعتنقه في النقد ضد الهيمنة والفلسفة الواقعية التي كان التقليديون يعتبرونها معقل الإنسانية ومناط تحريرها، على الرغم من أن الباحث في النظرية النقدية يجد أنها تستغنى عن أية مسؤولية للتشكيل النهائي للثقافات أو للنص نفسه.

يبدأ إداورد سعيد تنظيراته عبر الرؤية الهادئة للنص في سياق ما يُعرف بالتناص، ثم يبدأ في عرض وإزاحة فضاء التاريخ غير الهوس بوجود التناص في النظرية الأدبية المعاصرة، وقد يتناقض ذلك مع النقد العلماني الذي يرفض كل أرثوذكسية. إن النص إنتاج ثقافي تتعلق به كل الأنظمة الخارجة عنه والداخلية إليه عبر قوة تمثله. كيف تكونون أحراراً في عالم يتقدم كل لحظة ومرهوناً باللحظة التاريخية في كل وقت؟ إن النص الذي قدمه سعيد في العالم والنص والناقد يتميز بالاتساق بقدر كبير مع النص الحقيقي الموجود في العالم خارجه، وعند سعيد ينطبق ذلك على كتاباته حول الاستشراق بالإضافة إلى وجهات نظره التي أراد أن ينشرها عن القضية الفلسطينية حيث وضع في ذلك السياق كل النصوص الحيوية التي تعبر وتساعد على فهم الحرمان والظلم الذي يعم

العالم من جراء سياسة الرأسمالية، هكذا يوجه سعيد الوعى تجاه العلمانيين الذين يقدمون انطباعاً حاداً عن الواقع الاجتماعي والسياسى والقيم الإنسانية اللازمة لإنتاج المعرفة ونشر النصوص التى ترسخ ذلك وفى الختام يدعو سعيد لفكرة المقاومة بالنظرية مثل قوله بأن الناقد ينبغى أن يفتح حدقيه تجاه الحقيقة التاريخية نحو المجتمع، نحو الحاجات والمصالح البشرية لتأكيد أن الطرف الأدنى اجتماعياً يمكنه أيضاً أن يواجه طغاة الرأسمالية .

إجمالاً على خلاف نقاد ما بعد الحداثة يؤمن إدوارد سعيد بأصول النصوص التى تقرر حقيقة ومادية الإنتاج بالإضافة إلى الأيديولوجيين والظروف التى لها تأثير مباشر فى شكل ومضمون النص . والناقد يجب أن يحدد مكانه ووضعه فى العالم الخارجى بدون التغاضى عن المجاملات والعلاقات العامة، مثل هذا الناقد العلمانى يتحرك فيما بعد الحدود الضيقة التى لا تجسد مهارته الأكاديمية وتبدو كأنها فى قطيعة مع عالم الأحداث أو المجتمعات الخارجية عنه، وبناء التاريخ الحديث إنما جاء بواسطة المثقفين والنقاد والخطو نحو قواعد النقد العملى والأدبى/اللاسياسى - وعلى ذلك فالنص / والناقد / ومجموعة القراء عامة سيظلون فى علاقة جدلية أبدية .

المصطلحات

الرئيسية

المصطلحات الرئيسية

## ١ - قانون Canon :

تعدد المناحي التي تستخدم فيها كلمة قانون، فهي ميتافيزيقيا تشير إلى الفعل الإنساني مصاغاً في شكل قاعدة ذات سمتين : العموم والالزام، وكل الحالات أو الظواهر تظل خاضعة لها خاصة أن كلمة قانون ذات دلالات متعددة أهمها دلالة الفاعلية والسلطوية التي تُخضع دائماً البنية الذهنية خاصة إذا كان القانون يعنى تنفيذ وتطبيق فكرة الواجب والوجوب والضرورة التي يتضمنها كل مُعطى قائم على مسألة الصراع كقانون سيار عبر التاريخ .

## ٢ - ذاتية Subjectivity :

تقييم الأمور أو الظواهر أو الأحداث أو الأشياء أو الأشخاص



تقيماً متأثراً بذاتية الباحث وبما تنطوى عليه من ميول واتجاهات وعواطف وتعصب يعميه عن اكتشاف الحقيقة المجردة ورؤيتها بوضوح وهذا بطبيعة الحال يفسد ويشوه تلك الرؤية ويجعلها زائفة، وبالطع الذاتية عكس الموضوعية .

### ٣ - رأسمالية Capitalism :

هى نمط من إنتاج محدد كما أنها عبارة عن سلسلة من التشكيلات الاقتصادية والاجتماعية ومن الكيانات الملموسة التى يقوم فهمها على الوصف وتتميز الرأسمالية بوصفها نمط إنتاج يحدث بواسطة القوة الإنتاجية التى تعبئها وتساهم بقوة فى ازدهارها والرأسمالية باعتبارها تشكيلة اقتصادية واجتماعية أى تركيبة ملموسة ومعقدة لعدة أنماط من الإنتاج يكون إحداها مهيمناً والباقى مهيمناً عليه .

#### ٤ - هيمنة Hegemony :

هذا المصطلح أحد مصطلحات الماركسية الذى يدور فى فلك المادية التاريخية، حيث يشير إلى التمثيل المثالى لمصالح الطبقة الحاكمة على أنها مصالح عامة (للمجتمع ككل) فالطبيعة التراكمية للأفكار التى تكتسب صفة العمومية لا توسع فحسب من مجال هيمنة الطبقة الحاكمة، ولكنها تؤدي فى الوقت ذاته إلى تعميق الصراع بينها وبين كل طبقة تليها حتى يأتى وقت تظهر فيه طبقة (هى طبقة البروليتاريا) التى تمثل المصلحة العامة الحقيقية، وحسب رأى ماركس كل طبقة حاكمة تمثل بالفعل نطاقاً من المصالح أوسع من سابقتها، وذلك عن طريق فتح قنوات الحراك الاجتماعى إلى طبقة أعلى ومن ثم فإنها تأتى إلى القوة ليس فقط فى نطاق الدعوة المضللة إلى المصلحة الجمعية، ولكنها تأتى أيضاً لأنها تمثل بالفعل نطاقاً أوسع من المصالح. وتعزى إشاعة المصطلح إلى المفكر الشيوعى الأشهر أنطونيو جرامشى الذى كتب أهم نصوصه «كراسات السجن» أيام الحكم الفاشى لموسوليني .

#### ٥ - الحداثة Modernism :

حركة انفصال وتقاطع عن التراث أو الماضى لكن ليس لنبذه وإنما لاحتوائه وتلوينه وإدماجه فى مخاضها المتجدد، ومن ثم فهى اتصال وانفصال، استمرار وقطيعة، استمرار تحويلى لمعطيات الماضى وقطيعة مع الاندماج فيه، وقد مارست الحداثة هذا

الانفصال على نفسها فيما يسمى بـ «ما بعد الحداثة» الذى لا يمثل مرحلة تقع خارج الحداثة وبعدها إنه أقرب ما يكون إلى مراجعة الحداثة لنفسها لنقد بعض أسسها وتكوينها، فإذا ما غلب على دينامية الحداثة منطق الفصل والقطيعة، فإن ذلك وسم المراحل الظاهرة للحداثة فى ذروتها .

## ٦- الإحالة Reference :

مصطلح ظهر مع البنيوية وما بعد البنيوية عن المدارس النقدية السابقة عليها وقد اختلف حول مدى استطاعة النص على الإحالة إلى واقع غير أدبي أو حياتي فأنكرنا الطاقة الإحالية للأدب ومن ثم دفعنا بأن النص الأدبي لا يمكن وصفه بالصدق أو الكذب لأنه لا يُحيل القارئ إلى ما هو خارجه .

## ٧- الخطاب Discourse :

للخطاب معنيان منفصلان فى إطار نظرية السرد الأول المستوى التعبيري للرواية لا مستوى المضمون أى عملية السرد لا موضوعه، والثانى يتضمن التمييز بين الخبر والإخبار به وبين الواقعة والإبلاغ عنها. والخطاب يحتوى على «مادة» وسيط للإظهار شفاهى أو لغة مكتوبة، صور ثابتة أو متحركة، وبشكل أدق تتحكم فى تقديم تتابع المواقف والوقائع ووجهة النظر التى تحكم هذا التقديم ومن ثم إيقاع السرد ونوع التعليق .

## ٨ - السرد الرئيسى Master Narrative :

منتج النص ومسيرورته، موضوعه وفعله، بنيته وبناءه المتعلق يحدث حقيقى أو أكثر يقوم بتوصيله واحد أو اثنين أو عدد من الرواة لواحد أو اثنين أو عدد من المروى لهم (ظاهرين بدرجة أو بأخرى وكى لا يكون السرد الرئيسى مجرد وصف حدث قام بعض السرديين بتحديدده بوصفه سرداً - على الأقل - لحدثين حقيقيين أو خياليين (أو موقف واحد وحدث واحد) لا ينقضى أحدهما منطقياً أو يستلزم الآخر، وقد جادل سرديون آخرون حول أن السرد يجب أن يضم موضوعاً متصلاً ويشكل كلى، أما وسائط تقديم السرد التى يقوم بها الراوى / الرواة فهى كثيرة ومتنوعة (شفاهية ومكتوبة - تكتب بلغة العلامة أو توضح بالصور الساكنة أو المتحركة أو الإيماء أو أى تأليف منتظم بالطبع). أما بالنسبة للأشكال التى يمكن أن يصطنعها السرد (فى مجال السرد اللفظى وحدة تظهر روايات وقصص، وسيرة وأساطير وملاحم . . إلخ) أما توزيعه فإن السرد يظهر فى مجتمع بشرى يعرف التاريخ وكذلك الأنثربولوجيا .

## ٨ - استعمار - استعمارية Imperialism :

استخدمت هذه الكلمة أكثر ما استخدمت فى العلوم الاجتماعية والسياسية خاصة فى التاريخ المعاصر فى معنى محدد له علاقة بالماركسية وتفصيلها كما أن له صلة كبرى بحركة تحرر

الشعوب المستعمرة ويتصف الاستعمار بالسياسية على أمة معينة شرط أن تكون أدنى درجة من المستعمر؛ كما أن بها فوائد كثيرة لذلك المستعمر - ليس بالضرورة أنه يفتقدها كي يستعمر الآخر - خاصة إذا استغلها اقتصادياً والهدف الرئيسى للاستعمار تكون امبراطورية خارج مكانه تؤدي فى النهاية إلى تقاسم العالم من قبل المستعمرين (خاصة بلدان الرأسمالية) .

## نبذة

### المؤلف:

شيلي واليا ناقد وكاتب أفغانى يعمل بروفيسور للأدب الإنجليزي والدراسات المقارنة، يدرس نظرية ما بعد الاستعمار فى جامعة البنجاب بكاندهار - من إصداراته النقدية : «العالم بين التاريخ والحقيقة» .

### الترجمة:

عفاف عبد المعطى - باحثة وناقدة مصرية حاصلة على درجة الدكتوراه فى الأدب الأمريكى المقارن. من إصداراتها: السرد بين الرواية المصرية والأمريكية «بحث فى واقعة القاع» .





## هذا الكتاب

يظهر الباحث شيلبي واليا مشروع إدوارد سعيد الفكري الأساسي وقد تنوعت مشاربه بين السياسة التي اتخذ قراره بأن يعود إلى الكتابة فيها بعد حرب ١٩٦٧، والنقد الأدبي وجغاليات الفنون يلخص هذا المشروع - باعتباره أساساً للأدب المقارن - كتاب «الاستشراق» ١٩٧٨ إذ لم يكن الشرق حقيقياً بأوروبا غصيب، بل موضوع أعظم مستعمرات. أما «الثقافة والإمبريالية» الصادر في ١٩٩٢ فيقدم أجوبة لأسئلة أثارها كتاب الاستشراق، وإن رفض الفصل المطلق بين الأبيض وغير الأبيض (أي الغرب ومن سواه)، كما قامت أفكار الكتاب على اكتناء الروابط العميقة والحبوية بين العرب والغرب واليابان والصين وتقريباً هذه العلاقة التي تعقيد في عاندها وخصوبتها ما ينفي الفكرة المتخيلة التي تقترض أنه وضع العالم غربي، شرقي، بقى صاف من الأعراق والحضارات بعضها عن بعض. وقد أكد شيلبي واليا في هذا الكتاب على الموقف الفكري في الثقافة والإمبريالية الذي يتطرق عنه إدوارد سعيد ينبع من إيمان عتيق بالإنسان والحرية وضرورة التواضع والتفاعل والإثراء المتبادل بين الثقافات والمجتمعات، والصراع ضد الاستعمارية والاستعمار والهيمنة والتسلط والتعزير الغربي.

